الفصل الأول

مصادر التفكير النقدي عند الغزالي وأهم مؤلفاته النقدية

المبحث الأول : المصادر التاريخية

أولا : ظروف عصره

ثانيا : حياته

المبحث الثاني : المصادر الفكرية

أولا : المصادر الداخلية

ثانيا : المصادر الخارجية

المبحث الثالث: مؤلفاته النقدية

obeikandl.com

obeikandl.com

ليس التفكير النقدي عند الغزالي، وليد العدم، وإنما هو نتاج روافد ومؤثرات وإرهاصات عديدة فكرية وتاريخية، داخلية(إسلامية) وخارجية(غير إسلامية)، ذاتية (شخصية) وموضوعية.

ويمكن القول منذ البداية، بأن الغزالي مدين في تفكيره النقدي لهذه العوامل جميعا، ولذلك من الصعب جد عزل هذا التفكير ودراسته منفصلا عن الظروف الفكرية والتاريخية التي أحاطت به ومهدت لظهوره، وهذا ما جعلنا نخصص هذا الفصل للحديث عن هذه المصادر والخلفيات النظرية والتاريخية، وقد قسمناه إلى ثلاثة مباحث أساسية، نتناول في الأول منها الخلفية التاريخية والمتمثلة في حياته وظروف عصره، وأما الثاني، فنتناول فيه الخلفية النظرية المتمثلة في تراث السابقين من مسلمين وغيرهم، وأما الثالث، فسوف نخصصه لأهم مؤلفات الغزالي النقدية التي هي نتاج تفكيره النقدي وهي مصدرنا في معرفة منهجه النقدي الذي هو موضوع بحثنا.

المبحث الأول: المصادر التاريخية

إن تفكير الغزالي لايمكن فهمه بمعزل عن الظروف التاريخية المختلفة التي أحاطت به، وهذه الظروف يمكن تقسيمها إلى قسمين: ظروف عامة تتمثل في الظروف الاجتماعية، والثقافية، والسياسية وغيرها من الظروف

التي ميزت عصره، وظروف خاصة، وتتمثل في ظروف حياته، أي الجوانب المتعلقة بشخصيته من الميلاد إلى الوفاة، لذلك سوف نتناول في هذا المبحث مطلبين أساسيين، أولهما، يتناول ظروف عصره، والثاني يتناول حياته وشخصيته

أولا : ظروف عصره

إن المفكر غرس حضارته ونبت زمانها[١]، وفي هذا المعنى تندرج مقولة هيجل: "إن المفكر طفل زمانه"، ولما كان الأمر كذلك، فإنه من الضرورة معرفة الظروف التاريخية التي تحيط بالفكر الفلسفي قصد معرفة أثرها في توجيه هذا الفكر وجهة معينة، فهل يصدق ذلك على فكرأبي حامد الغزالي؟ وإن كان الأمر كذلك، ففيم تتمثل هذه الظروف؟ وما هي حدود تأثيرها؟.

لقد كان عصر الغزالي مرآة للعصور المظلمة في التاريخ الإسلامي، وهي العصور التي تميزت بالاضطرابات السياسية والفوضى الفكرية والاجتماعية، وبالتدهور الروحي والأخلاقي[٢]، فقد نشأ الغزالي" في عصر سادته حرب العقائد وكثرت فيه المنازعات الفكرية والكلامية وبدت الفرق يطعن بعضها في بعض ويتعصب بعضها دون بعض فطغت بدعة التكفير واشرأبت طبيعة النقد، وتفشت نزعة المغالاة"[٣]، هذه

---

[١] - جعفر آل يس، فلاسفة مسلمون، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص١٢٢.

[٢] - حنا الفاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ج٢، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢، ص٢٣٦.

[٣] - جعفر آل يس، مرجع سابق، ص١٢٣ . وكذلك: دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة وتعليق، أبو ريدة، دار النهضة العربية، لبنان، ط ٥، ١٩٨١، هامش ص ٣٢٤

الصراعات والمنازعات مصدرها تعدد الفرق واختلافها[١]، ويمكن التميز بين ثلاثة أنواع من هذه التعددية هي كالتالي:

١ـ **التعددية الدينية(العقائدية)**: شهد عصر"أبي حامد الغزالي" صراعا عقائديا بين أتباع الديانة الإسلامية من جهة، وأتباع اليهودية والنصرانية من جهة أخرى، وهذا ما عبر عنه بقوله: "رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء لهم إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام"[٢](*)، فإذا، لم يعرف عصر الغزالي الوحدة العقائدية، وهذا انعكس بدون شك على الوحدة الاجتماعية والسياسية والفكرية.

٢ـ **التعددية الفكرية(المذهبية)**: لقد تميز عصر الغزالي بانتشار الفرق والمذاهب الفلسفية والكلامية والصوفية فضلا عن مذاهب الفقهاء والمحدثين، ومعلوم أن لكل مذهب من هذه المذاهب منهجه الخاص في التفكير، فقد امتاز الفلاسفة عن غيرهم بنزعتهم العقلية ذات الأصول الفلسفية اليونانية، أما المتكلمون فقد متازوا عن غيرهم بالجدل والمناظرة وقد انقسموا بدورهم شيعا وأحزابا، فمنهم من اتجه وجهة

---

١. مصطفى جواد، عصر الإمام الغزالي، ضمن مهرجان الغزالي بدمشق في الذكرى المائوية التاسعة لميلاده، مارس ١٩٦١، ص ٤٩٥ وما بعدها.

٢. الغزالي، المنقذ من الضلال، تقديم فريد جبر، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، ط٢، ١٩٦٩، ص ٤٩٥ وما بعدها.

*. لقد أدلى الغزالي بدلوه في هذا الصراع العقائدي من خلال كتابه "الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل" والنسخة التي بين أيدينا من تقديم وتحقيق وتعليق: محمد عبدا الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط٣، ١٩٩٠ ، وهو يعد من أول المصنفات في علم مقارنة الأديان.

فلسفية عقلية كالمعتزلة، ومنهم من جمع بين العقل والنقل كما هو الشأن بالنسبة إلى الأشاعرة، في حين اتجه البعض الآخر وجهة سياسية كالخوارج والشيعة، وأما المتصوفة والفقهاء فقد رفضوا العقل كمنهج في البحث عن المعرفة ولكنهم اختلفوا في المنهج البديل، فقد توقف الفقهاء عند حدود النقل(النص)، بينما تجاوز المتصوفة حدود المعنى الظاهر للشريعة إلى معناها الباطني(التأويل الباطني)، وهؤلاء المتصوفة أيضا لم يكونوا على مذهب واحد، فقد كان تصوف بعضهم تصوفا سنيا معتدلا، بينما كان تصوف آخرين منهم فلسفيا، وإلى جانب هذه المذاهب كان هناك مذهب الشكاك[١](*)، وهم مجموعة من المفكرين نزعوا نزعة شكية في المعرفة والعقيدة (كأبي العلاء المعري وغيره).

٣- **التعددية السياسية**: لقد انعكس الاختلاف والاضطراب الديني والفكري على الجانب السياسي في عصر الغزالي، حيث بلغ الصراع السياسي أشده بين السلاجقة السنيين المنافحين عن الخلافة العباسية من جهة، والبويهيين الشيعة الذين كانوا يعملون لحساب الدولة الفاطمية، من جهة أخرى، وقد عايش الغزالي هذا الصراع عن قرب، حيث كان من المؤيدين للسلاجقة ومن المدافعين عنهم، فهم الذين قربوه منهم وعينوه

---

[١] . فكتور سعيد باسل، منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، [د.ط] ، [د. ت] ، ص١١ .

* . ويطلق عليهم أيضا بالتيار الإنتقادي، ومن أقطابه: المعري، ابن المقفع، إخوان الصفا، الجاحظ، أنظر مذاهبهم ضمن: عادل العوا، الكلام والفلسفة، مطبعة جامعة دمشق، ط٣، ١٩٦٥، ص ١٣١ وما بعدها.

مدرسا بالمدرسة النظامية ببغداد، وكان دفاعه عنهم من أسباب تأليفه كتاب "المستظهري" أو "فضائح الباطنية " .

هذه صورة موجزة عن عصر الغزالي، ولا شك أن الغزالي قد تأثر بروح عصره[١]، وذلك ما يؤكده بنفسه في مذكرة حياته (المنقذ من الضلال)، حيث يقول: "ولم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين [...] أتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته"[٢].

ففي هذا النص، نجد صورة حية عن عصر الغزالي الذي كان يعج بالمذاهب والتيارات المختلفة والمتضاربة فيما بينها مما جعل الغزالي يشبهه بالبحر العميق، ولكن ذلك لم يدفع الغزالي إلى البقاء في موقع الملاحظ والمتفرج فقط، وإنما دفعه ذلك إلى خوض هذا البحر خوض

---

١ . جعفر آل يس، مرجع سابق، ص١٢٣.

٢ – الغزالي ، المنقذ من الضلال، ص ص (١٠- ١١).

الجسور لا خوض الجبان الحذور، كما قال[١]، حيث قام بنقد مختلف الاتجاهات والمذاهب السائدة في عصره، ونقد العلماء والفقهاء ورجال الدين والسلاطين والمجتمع ككل، وكانت ثقافته الواسعة خير سلاح له في ذلك، وقد وصف " تاج الدين السبكي" ذلك، حيث قال: "جاء [الغزالي] والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء إلى مصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلاد قلمه، ويحمي حوزة الدين [...] حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات"[٢]، والواقع أن الفلسفة لم تكن النزعة الوحيدة المسيطرة آنذاك على الحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية، وإنما كانت هناك أيضا نزعات واتجاهات ساهمت كلها فيما آل إليه الوضع من اضطراب وفوضى، وهذا ما يؤكده الشيخ "أبو الحسن الندوي" في قوله: "كان العالم الإسلامي في القرن الخامس وقد تواضعت على إضعافه الفلسفة والباطنية وأحدثت تبلبلا فكريا، يجره إلى الإلحاد في العقيدة، والتدهور في الأخلاق والاضطراب في السياسة"[٣]. وهذا الوضع يدل على مدى حاجة العالم الإسلامي إلى"شخصية قوية جديدة ترد إليه الإيمان بالعقيدة، والاعتماد على مصادر الدين الأصلية، والاستقامة في الأخلاق، وينتج الإنتاج الجديد الذي تكسد معه سوق الباطنية، وتركد ريحها، وتعرض الإسلام عرضا عقليا جميلا تدحض معه حجج الفلاسفة والباطنية، كان لابد لهذه الشخصية أن تكون جامعة بين العلوم العقلية

---

[١] . المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[٢] . السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، المجلد الرابع، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، [د ت]، ص ١٩٢.

[٣] . الندوي، أبو الحسن، من رجال الفكر والدعوة، ج ١، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤ .

والنقلية، لها في كل منهما قدم راسخة وباع طويل ونظر نافد، وتكون عقلية كبيرة تناهض فلاسفة اليونان وقادة الفكر في العالم، تجري في رهان واحد وتستطيع أن تدون كثيرا من العلوم تدوينا جديدا، وتقول فيها كلمتها، وتجمع إلى ذلك كله من المواهب العلمية والكفاية العقلية، الإيمان القوي الراسخ الذي اكتسبه هذا الرجل بدراسته وتأملاته وإخلاصه وجهاده في سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين، ويستطيع بكل ذلك أن ينفخ في المجتمع الإسلامي روحا جديدة وحياة جديدة، لقد رزق العالم الإسلامي وهو في أشد حاجة وأدق ساعة، هذه الشخصية الفذة في منتصف القرن الخامس الهجري هي شخصية الغزالي"[١]، "فكأن القدر قد أعده لإصلاح الوضع الفاسد"[٢] أو لم يقل (صلعم): "إن الله يبعث على كل رأس مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها"[٣]، ولعل الغزالي كان يشعر في نفسه حقا أنه مجدد المائة الخامسة للهجرة كما توحي بذلك بعض أقواله.

ثانيا: حياته

إننا لا نريد هنا عرض سيرة الغزالي وترجمة حياته، فذلك عمل قد كفتنا الدراسات والمصادر القديمة منها والحديثة، عناء البحث فيه[٤]،

---

[١] – أبو الحسن الندوي، مرجع سابق، ص ١٤٤ .

[٢] – القرضاوي يوسف، الغزالي بين مادحيه و قادحيه ، دار الوفاء، المنصورة ، مصر ط١، ١٩٨٨ ،ص ٢٢.

[٣] – الحديث ورد في سنن أبي داوود عن أبي هريرة، عن رسول الله (ص) قال: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"، صحيح سنن المصطفى لأبي داود ، ج٢ ، كتاب الملاحم، الباب الأول ، ص ٢٠٩ .

[٤] – من هذه المصادر: السبكي في كتابه طبقات الشافعية ، وابن خلكان في كتاب : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، تحقيق إحسان

وإنما غرضنا هو الكشف عن العلاقة القائمة بين حياته ومنهجه النقدي، بمعنى مدى تأثر منهج الغزالي النقدي بظروف ومراحل حياته الخاصة، فإذا كنا نلمس هذه العلاقة لدى أغلب المفكرين والفلاسفة، قدماء كانوا أم محدثين، مسلمين أم غير مسلمين، فإننا نريد معرفة ما إذا كان ذلك ينطبق على الغزالي أيضا، لذلك" يتحتم علينا أن نتعمق في معرفة تاريخ حياة الغزالي إذا أردنا أن نفهم ما كان لهذا الرجل من تأثير"[١]، وتحقيقا لهذه الغاية، فإننا نقسم تاريخ حياته إلى خمسة مراحل أساسية وذلك بحسب أهميتها وأثرها في منهجه النقدي.

١. مرحلة الطفولة

ولد أبو حامد الغزالي منتصف القرن الخامس الهجري (٤٥٠هـ) في "طوس" إحدى مدن "خراسان" بفارس[٢]، وسيكون لهذه الزمكانية أهميتها في حياة الغزالي، حيث" كانت المنازعات الدينية مالئة فضاء هذه المدينة، لكثرة عدد المسيحيين فيها وكثرة عدد الشيعيين"[٣]، بالإضافة إلى كونها

عباس، دار الثقافة، بيروت، [د.ط]، [د.ت]، ومن المحدثين: عبد الكريم العثمان، سيرة الغزالي، وقد تناول الدكتور عبد الأمير الأعسم في كتابه "الفيلسوف الغزالي" أهم الدراسات القديمة والحديثة التي تناولت سيرة الغزالي وفلسفته، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط٢ ،١٩٨١، ص ١١ و ما بعدها.

[١] - دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٣١٩ .

[٢] - السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، مرجع سابق، ص١٠٢. وكذلك: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مرجع سابق، ص١٨٧

[٣] - سليمان دنيا، الحقيقة في نظر الغزالي، دار المعارف ، مصر، ط٤ ، [د،ت] ، ص ص(١٨ – ١٩).

مركزا هاما من مراكز العلم والثقافة وقتئذ على غرار مدينتي بغداد والبصرة، حيث اشتهرت كل منها بمدارسها النظامية[١].

وإذا كنا قد تناولنا فيما مضى أثر عصره في تفكيره، فان ما يهمنا الآن هو أثر محيطه العائلي بدءا بوالده، فقد كان هذا الأخير رجلا "فقيرا صالحا، لا يأكل إلا من كسب يده في غزل الصوف، وكان في أوقات فراغه يطوف على المتفقهة ويجالسهم، ويتوفر على خدمتهم[...] وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيها واعظا"[٢]، وقد استجاب الله لدعاء العبد الصالح ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني﴾ [البقرة:١٨٦]، فرزقه ولدين، فقيهنا الواعظ "أبا حامد"[*] وشقيقه الأصغر"أحمد"، وإذا كان التأثير المباشر لوالده غير مؤكد، لأن المؤرخين لم يذكروا كم كانت سن "أبا حامد" عند وفاته، فإنهم قد أكدوا على تأثيره غير المباشر، إذ أنه وقبل وفاته يكون قد عهد بولديه (أحمد ومحمد) إلى"صديق له متصوف وأوصاه أن يتعهدهما بالتربية والتعليم وزوده لذلك بما كانت تملكه يده من مال وكان قدرا ضئيلا، فسرعان ما نفذ، وكان الوصي بدوره فقيرا، فنصح لهما أن يلتحقا بمدرسة من مدارس العهد التي كانت تمد الوافدين

---

[١] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٢] السبكي ، ص١٠٢.

[*]- اسمه الحقيقي هو محمد، ويكني بأبا حامد نسبة إلى ابنه "حامد"، وأما الغزالي، فهي كناية اختلفت المفكرون بشأنها، فقال فريق منهم الغزالي (بتخفيف الزاي) نسبة إلى بلده غزالة (مسقط لرأسه) وقال فريق الغزالي (بتشديد الزاي) نسبة إلى حرفة والده، والرأي الأول هو الأرجح . سليمان دنيا، ص ص (١٨ -١٩).

عليها بما يلزمهم من النفقة"[١]، إذا، فقد كان هدف الغزالي الأول من دخوله إلى المدرسة ليس طلبا للعلم بقدر ما كان للاسترزاق منها وهذا ما عبر عنه بقوله:"طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله"[٢].

وللغزالي عم اشتهر بعلمه وأخلاقه وقد أقر بفضله علماء وفقهاء عصره، وكانت له صلة بالغزالي في طفولته، وذلك بعد وفاة والده[٣]. فالغزالي، إذا، سليل أسرة عالمة وفاضلة، ولاشك أنه قد تأثر بهذه الظروف التي أحاطت بطفولته وذلك من حيث توجهه الصوفي خاصة، ومما يدعم هذا الاعتقاد هو أن شقيقه"أحمد" الذي قاسمه ظروف طفولته، قد سلك هو الآخر سبيل التصوف[٤]، حتى صار صاحب نظرية فيه، وهي نظرية العشق الإلهي[٥]، فكل منهما قد استقر في نهاية الأمر على مذهب التصوف وهو المذهب الذي ولدا ونشآ في ظله، ولما كانت مرحلة الطفولة من أكثر المراحل تأثيرا في الفرد، فإنه لا يمكن تجاهل أثر هذه المرحلة في حياة أبي حامد وفكره، بما في ذلك مرحلة التدريس في نظامية بغداد، وهي فترة الرفاهية والرخاء بالنسبة له، إذ أنه كان خلال هذه الفترة أيضا يقوم بعملية تعويض من الناحيتين النفسية والإجتماعية لظروف الفاقة والحرمان التي ميزت طفولته.

---

[١] السبكي ، مرجع سابق، ص١٠٢.

[٢] الغزالي، المنقذ من الضلال، مصدر سابق، ص ١١ .

[٣] – السبكي، مرجع سابق، ص ١٠٣، وأيضا. ابن خلكان، مرجع سابق، ج ٤ ، ١٨٨.

[٤] – ابن خلكان ، ج ١، ص ٩٧ . وكذلك: السبكي، مرجع سابق، ١٠٣.

[٥] – هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية، تر. نصير مروة ، وحسن قبيسي، منشورات عويدات، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ص ٢٩٧ .

٢ – مرحلة تعلمه ولقاؤه بالجويني

يذهب أغلب علماء النفس إلى القول بأن الذكاء من الصفات الفطرية التي يرثها الفرد عن آبائه وأجداده، لذلك فليس مستبعدا أن يكون أبو حامد الغزالي قد ورث هذه الصفة عن أسلافه 'الغزاليين" الذين كانوا من أذكى وأعلم الناس في زمانهم ومما يرجح هذا الاعتقاد، ظهور آثار النبوغ والذكاء عنده منذ سني حداثته، فلم يبلغ أشده حتى تعلم القراءة والكتابة"[١]، وقد أكد الغزالي نفسه أثر هذا العامل في تكوين شخصيته العلمية التي تجسدت في فلسفته النقدية، حيث قال: "وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور: دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري: غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة، على قرب عهد الصبا"[٢]. إلا أن الفطرة والوراثة ليستا بالمصدرين الأكثر تأثيرا في فلسفته مقارنة مع عامل التربية والتعليم، فقد تتلمذ أبو حامد على يد خيرة الأساتذة وقتئذ، وذلك بأحسن المدارس الإسلامية، حيث قرأ"طرفا من الفقه ببلدة طوس على يد أحمد بن محمد الراذكاني الطوسي"[٣]، وقد كان أستاذه الأول بها "يوسف النساج" وكان صوفيا وصار فيما بعد إمام الحرمين [...] ولم يقصر الغزالي همه على الدروس الدينية، بل أولى

---

١ – جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٣، ص ٣٣٣

٢ – الغزالي، المنقذ من الضلال، ص ص (١٠-١١).

٣ – السبكي، مرجع سابق، ص ١٠٣ .

جانبا كبيرا من عنايته لدراسة اللغتين الفارسية والعربية"[١]، ولعل هذا ما يفسر تنوع مؤلفاته، فمنها الفارسي ومنها العربي، وبعد هذه المرحلة الدراسية، تأتي مرحلة دراسية أخرى أكثر أهمية من سابقتها ألا وهي لقاؤه بإمام الحرمين" أبو المعالي الجويني"، الأستاذ الأول بالمدرسة النظامية بنيسابور[٢]وقتئذ، فهنا تبدأ مرحلة هامة في تاريخ الغزالي، "فقد وجد في المدرسة الجديدة من فنون المعرفة ما يصلح أن يكون غذاء لعقله المتعطش، وفي رئيس المدرسة الأستاذ الكفء، والمدرس الضليع، فأكب على دروس الفقه والأصول والمنطق والكلام، يتلقفها من فم هذا الأستاذ الجريء الذي لا يرى بأسا في أن ينقد الأشعري أو غيره، إذا رأى في كلامهم موضعا لنقد أو مجالا لتعقيب"[٣]، فلهذه المرحلة، إذا، أهميتها الخاصة، ويكمن ذلك في أمرين: أولهما ثقافة الجويني وسعة إطلاعه على مختلف الفنون والمعارف من منطق وفقه وأصول وكلام وغيرها، وهو ما يجعله مصدرا هاما لإشباع رغبة الغزالي الفطرية في "درك حقائق الأمور"، وثانيهما، نزعة الجويني النقدية، التي تجلت في نقده لمذاهب ومفكري عصره مسلمين كانوا أم غير مسلمين، ولم يسلم من ذلك شيخه "أبو الحسن الأشعري" نفسه، فهاتين الميزتين(الثقافة الموسوعية، والنزعة النقدية) اللتين امتاز بهما الجويني ستجدان في "أبي حامد" تربة خصبة

---

١ – سليمان دنيا، مرجع سابق، ص ص(١٩ – ٢٠).

٢. السبكي، مرجع سابق، ص ١٠٣ .

٣. سليمان دنيا، مرجع سابق، ص ص(١٩ – ٢٠).

تؤتي أكلها بعد حين"[١]، وهذا ما يؤكده أغلب المترجمين لسيرة أبي حامد من أمثال" الزبيدي" الذي يقول في ذلك:" ثم قدم [الغزالي] نيسابور ولازم إمام الحرمين حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصلين والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد على مبطليهم، وإبطال دعاويهم، وصنف في كل فن من الفنون كتبا أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها"[٢]، إلا أن هذه المكاسب لم يكتب لها البروز والشهرة في زمن أستاذه، نظرا لشهرة هذا الأخير وإمامته للمذهب الأشعري وقتئذ، لذلك لم يجرؤ الغزالي على نقد أستاذه ولا على الانعزال عنه ـ خلافا لما فعل أبو الحسن الأشعري مع أستاذه أبو علي الجبائي المعتزلي، وواصل بن عطاء مع أستاذه الحسن البصري ـ وذلك على الرغم مما كان يبرز بينهما من حين لآخر من اختلاف كثيرا ما أدى إلى تدمر الأستاذ من تلميذه[٣] الذي فطر على الابتعاد عن التقليد وكسر العقائد الموروثة، وهذا ما سيميز شخصيته بعد وفاة أستاذه .

---

[١]. عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدلت ، بيروت، ط ٢، ١٩٨١، ص ٦٠٨ .

[٢]– السبكي، مرجع سابق، ص ١٠٣.

[٣] – ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج ٤ ، مرجع سابق، ص ٢١٧ – ٢١٨ .

٣. مرحلة التعليم ولقاؤه بنظام الملك

لقد كانت المراحل السابقة بمثابة إرهاصات وإعداد لمرحلة أكثر أهمية في حيا ة الغزالي وفلسفته النقدية، نظرا لما اتسمت به من مميزات يعبر عنها "هنري كوربان" في قوله: "بعد موت "إمام الحرمين"(١٠٨٥) اتصل الغزالي بالوزير السلجوقي "نظام الملك" مؤسس جامعة بغداد، الذي عينه مدرسا في هذه الجامعة عام(١٠٩١م)، لقد مر الغزالي في هذه الفترة بمرحلة حاسمة من حياته، وجد فيها الظرف الملائم لتفتح براعم شخصيته وبروزها، وللتعمق في المعارف الفلسفية، فأنتج في هذه الفترة كتابين، كتاب "مقاصد الفلسفة" أولا وهو كتاب كان له شأن عجيب في الغرب [...] والكتاب الثاني [...] يتضمن حملة الغزالي على الفلاسفة"[١]، وهو كتاب "تهافت الفلاسفة". فهذه المرحلة إذن تميزت بثلاثة أحداث أساسية لكل منها أثره الخاص، وهي كالتالي: وفاة إمام الحرمين الجويني، ولقاء الغزالي بنظام الملك(الوزير السلجوقي)، ثم تعيينه أستاذا بالمدرسة السلجوقية ببغداد.

فبالنسبة للحدث الأول، يعتبر الفرصة المواتية التي كان أبو حامد يتحينها لإشباع رغبته في الاستقلال الفكري، الذي جبل عليه وهي الرغبة التي عملت القوة الفكرية والروحية للجويني على كبحها دون أن تتمكن من القضاء عليها، لذلك فقد كان لهذا الحدث أثره على الغزالي سواء من

---

[١] هنري كوربان، مرجع سابق، ص ٢٧٥ .

الناحية النفسية أم الفكرية، إذ كان المرشح الأول لإمامة المذهب الأشعري بعد إمام الحرمين، وأما بالنسبة للحدثين الثاني والثالث فلا تقل أهميتهما عن الحدث السابق، فقد كان الوزير"نظام الملك" رجلا محبا للعلم والعلماء وهو الذي أنشأ المدارس النظامية التي عرفت باسمه(المدارس النظامية)، وكانت تعقد في مجلسه المناظرات واللقاءات العلمية، ولم يفوت الغزالي فرصة اللقاء هذه فناظر الأئمة والعلماء في مجلسه وقهر الخصوم، وظهر كلامه على الجميع، واعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب (نظام الملك) بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته ببغداد"[1]، وهكذا كان هذا الوزير مصدر دعم مادي ومعنوي لأبى حامد، فازداد هذا الأخير جرأة على نقد الخصوم(الذين هم أيضا خصوم السلاجقة ممثلي الخلافة العباسية في بغداد) سوء كانوا باطنية أم كانوا من ذوي النزعات العقلية كالفلاسفة والمتكلمين، ويتضح ذلك في مؤلفات هذه المرحلة النقدية، ككتاب "المستظهري" الذي ألفه بطلب من الخليفة "المستظهر بالله"، ومن هنا عنوان الكتاب، وكتاب "تهافت الفلاسفة " وغيرهما.

وأما فيما يخص توليه التدريس في نظامية بغداد، فيعد نقلة نوعية في حياة الغزالي، حيث انتقل من مرحلة التأثر والتلقي إلى مرحلة العطاء والتأثير، وقد نجح "الغزالي" في مهمته هذه أيما نجاح، فصار مضرب الأمثال وشدت إليه الرحال" وأعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله

[1] – السبكي، مرجع سابق، ص ١٠٣ . وكذلك: ابن خلكان، ج ٤ ، مرجع سابق، ص ص (٢١٧ – ٢١٨).

وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة، وأحبوه وأحلوه محل العين بل أعلى وقالوا أهلا بمن أصبح لأجل المناصب أهلا"[١]، وبهذا بلغ الغزالي أرقى المناصب التي يطمح إليها أهل الدنيا جامعا بين المال والشهرة والعلم والجاه والمنصب. ولكن هل هذا هو كل ما يطلبه أبو حامد الغزالي من الدنيا؟ .

٤ – مرحلة الشك والمرض

يقال دوام الحال من المحال، وهذا القول يصدق أيضا على حال الإمام الغزالي، إذ لم تكن المرحلة السابقة الذكر، هي المحطة الأخيرة في حياته، وإنما أعقبتها مرحلة أخرى تعد الأخطر في حياته الفكرية والعملية، ألا وهي مرحلة الشك والمرض، لقد كان ذلك" في السن السادسة والثلاثون، حيث واجه أبو حامد مشكلة اليقين الفكري، وهي مشكلة طرحت في وجدانه بإلحاح وعنف مما سبب له أزمة داخلية حادة"[٢]، فلم يكن للغزالي، وهو الرجل الذي جبل على حب البحث عن الحقيقة، من بد أن يطمئن إلى معارفه ومدركاته المكتسبة بالسماع والتقليد والحس والعقل لذلك بدأ الشك يداخله فيما كان يظنه يقينا مطلقا، فأعضل هذا الداء، ودام قرابة شهرين، ظل خلالهما على طريقة السفسطائيين، لا يثق في أي معرفة ولا يسلم بصحتها مهما كان مصدرها، ولكن هذا الشك بقي داخليا (نفسيا) ولم يجرؤ على التصريح به[٣]، لما قد ينجر عن ذلك

---

[١] – السبكي، مرجع سابق، ص ١٠٣. وكذلك: ابن خلكان، ج ٤، مرجع سابق، ص ص (٢١٧ – ٢١٨).

[٢] هنري كوربان، مرجع سابق، ص ٢٧٣ .

[٣] – الغزالي، المنقذ من الضلال، مصدر سابق، ص ١٣ .

من عواقب وخيمة بالنسبة له ولمجتمعه، إذ لم يكن معقولا أن يعلن الحرب على معارفه التي ظل يتلقاها من خيرة أساتذته في عصره، وكيف سيكون موقفه أمام أولئك الذين ظل يلقنهم الدروس بنظامية بغداد فأكبروه وأجلوه؟ وكيف سيكون موقفه أمام من وضع ثقته فيه وجعله رئيسا لنظامية بغداد؟ نعم، قد تكون هذه الأسئلة وغيرها سببا من الأسباب التي أدت بأبي حامد إلى كبت ما كان يداخل نفسه من شكوك وحيرة، ولكن هل في مقدور الإنسان أن يقوم بدورين معا أو أن يتقمص شخصيتين متناقضتين: شخصية المعلم والملقن الموقن، وشخصية السفسطائي الشاك والناقد، وهو ما كان الغزالي يقوم به طيلة شهرين؟

إن هذه الحالة تؤدي حسب علماء النفس إلى أمراض وأزمات نفسية، وذلك ما حصل للغزالي فعلا ابتداء من شهر رجب سنة (٤٨٨ هـ)، يقول: "في هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس [...] وقد أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب[...] حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم"[1]، إن هذا الاعتراف يؤكد حجم المعاناة التي كان أبو حامد الغزالي يكابدها، إذ لم يستطيع الصمود على حالة الشك الخفيف[2] أو حالة الشك

---

[1] – المصدر نفسه، ص ٣٧

[2] – يرى سليمان دنيا أن الغزالي قد مر بمرحلتين شكيتين، الأولى خفيفة، وهي تصادف عندنا المرحلة الأولى منه والتي دامت شهرين، والثانية عنيفة، وتقابلها عندنا المرحلة الثانية التي دمت ستة أشهر، أنظر: الحقيقة في نظر

الاختياري كما أسماها، وإنما اضطره ذلك إلى التوقف عن التدريس، وهذا ما انعكس سلبا على مزاجه النفسي، ولم يكن، بطبيعة الحال، في إمكان الأطباء معالجة هذا الداء، لأنه داء نفسي أكثر منه عضوي، وعلى إثر هذه الأزمة الحادة ترك "الغزالي" التدريس بنظامية بغداد مختارا بدل المنصب والمال والجاه طريق الهجرة إلى الله، يقول هنري كوربان واصفا ذلك: "ويمكننا أن نتصور إلى أي حد قد أذهل هذا القرار الحاسم، الذي اتخذه الغزالي أهل الفكر في عصره، وهو رئيس المدرسة النظامية والناطق بلسان المذهب الأشعري، هذا الموقف يكشف عما يتمتع به الغزالي من شخصية خارقة"[1]. لا شك أن "هنري كوربان" يعبر ههنا عن ذهوله الشخصي من موقف الغزالي، ولكنه يحاول أن ينسب ذلك إلى المفكرين المسلمين العاصرين لأبي حامد، لذلك فعملية الإسقاط هذه لم تكن في محلها، لأن أبا حامد لم يكن أول من سلك هذا الموقف بالنسبة للمفكرين للمسلمين، فالحارث المحاسبي، ورابعة العدوية وأبي طالب المكي، والجنيد البغدادي، وذو النون المصري وغيرهم، هم قدوته في ذلك، ثم إن الغزالي لم يبدل ما هو أفضل بم هو دونه، لأنه كغيره من المتصوفة يرى أن الآخرة خير وأبقى، وأن التصوف هو السبيل إلى نيل ذلك.

الغزالي، مرجع سابق، ص ٨، وكذلك. مقدمة ميزان العمل للغزالي، تح . سليمان دنيا، دار المعارف، ط١، ١٩٦٤، ص ٥٢ .

[1] . هنري كور بان، مرجع سابق، ص ٢٧٣ .

٥ – مرحلة التصوف واليقين

ترك الغزالي بغداد قاصدا الشام في رحلة تصوفية شاقة، وكان من نتائج هذه المرحلة، شفاءه من المرض وعودة نفسه إلي الطمأنينة والسكينة وعودة اليقين بعد الشك، فعادت الثقة في العقليات والحسيات، يقول في ذلك: "ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله في الصدر"[١]، وفي نظر الغزالي، فإنه ليس مخصوصا بهذه الحالة، ففي الحديث الشريف ما يؤكد ذلك، كقوله (صلعم): "فمن يرد الله به خيرا يشرح صدره للإسلام"، ويقال أن الرسول (صلعم) لما سئل عن معنى الشرح هنا، أجاب(صلعم): "هو نور يقذفه الله في الصدر وعلامته التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود"[٢]، وقد بقي الغزالي على حال التصوف هذه حتى وفاته، إذ أنه وعلى الرغم من عودته إلي التدريس والتصنيف في أخريات حياته بمسقط رأسه[٣]، إلا أنه لم يكن بغرض طلب المال أو الشهرة أو إشباعا للغرور، حيث يقول: "طلبنا العلم لغير الله فأبي أن يكون إلا لله"، وبوفاته سنة (١١١١ م/٥٠٥هـ) تكون الأمة الإسلامية قد فقدت رجلا عظيما، لكن فكره بقي وسيبقي حجة من حجج الإسلام الخالدة .

---

[١] . الغزالي، المنقذ من الضلال، ص ص(١٣- ١٤).

[٢] المصدر نفسه، ص ١٣.

[٣] – ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، مرجع سابق، ص ص (٢١٧ – ٢١٨).

هذه أهم المحطات الأساسية في حياة الغزالي استقيناها بالخصوص من اعترافاته التي تضمنها كتابه "المنقذ من الضلال"ومن بعض المصادر الأخرى، القديمة منها كطبقات الشافعية للسبكي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، بالإضافة إلى بعض الدراسات الحديثة التي اعتمدت بدورها على نفس مصادرنا، كدراسة الأستاذ "سليمان دنيا": "الحقيقة في نظر الغزالي"، وغيرها من الدراسات الإسلامية والغربية التي أشرنا إليها في طيات هذا البحث.

ومما سبق، يتضح لنا مدى تأثر تفكير الغزالي عموما وتفكيره النقدي خصوصا، بظروف حياته عبر مراحلها المختلفة، بحيث يكاد يكون هناك تطابق بينهما، وهذا ما لاحظه بحق الكثير من الباحثين في شخصية الغزالي وفكره.

obeikandl.com

المبحث الثاني: المصادر الفكرية

أشرنا في المبحث الأول إلى أن المنهج النقدي لا يبدأ مع كانط، وإنما أصول هذا المنهج قديمة قدم الفكر الفلسفي، وأشرنا كذلك إلى أن الإمام الغزالي قد ارتكز على هذا المنهج في تفكيره الفلسفي وفي بحثه عن الحقيقة، ولكن ذلك لا يعني أنه أول مفكر مسلم مارس التفكير النقدي، فثمة محاولات سابقة له في هذا المجال، ولاشك أن الغزالي قد استفاد من هذه المحاولات التي يمكن عدها بمثابة إرهاصات الفلسفة النقدية، بل يمكن القول بأن تفكير الغزالي النقدي مدين للفلسفة اليونانية، رغم ما عرف عن موقفه النقدي منها، وسنحاول فيما يلي أن نحدد التراث الفكري الذي أثر في فلسفة الغزالي النقدية سواء اليوناني منه أم الإسلامي، مبتدئين في ذلك بالتراث الإسلامي ممثلا في القرآن والسنة والمدارس الفكرية المختلفة، وننتهي بالمصادر الخارجية ممثلة في الفلسفة اليونانية، وسوف نراعي في ترتيب هذه المصادر أهميتها من حيث تأثيرها في فلسفة الغزالي النقدية.

أولا: المصادر الداخلية

١ – القرآن والسنة

يشكل القرآن الكريم إلى جانب السنة النبوية مصدرا أساسيا من مصادر الفكر الإسلامي بمختلف اتجاهاته وتياراته، وإذا كانت المدرسة النصية قد تمسكت أكثر من غيرها بنصوص الكتاب والسنة في الاستدلال على

آرائها ومواقفها المختلفة، فإن التيار العقلي قد استند هو الآخر على هذا المصدر في التفكير على الرغم من اعتداده بالعقل، فقد كان النقل دائما شاهدا على نتائج التفكير العقلي، فإن كان هناك تعارض بينهما، يتم تأويل النصوص، وعلى غرار هؤلاء وأولئك، نجد أصحاب الاتجاه الباطني والذوقي (العرفاني)، سواء من المتصوفة أو من الباطنية، من أكثر الاتجاهات تمسكا بالنص، على الرغم من أنهم لم يأبهوا بظاهره قدر اعتدادهم بالباطن، وقد عبر"على سامي النشار"عن أثر القرآن في الفكر الإسلامي في نص معبر مما جاء فيه قوله: " الحياة الإسلامية كلها ليست سوى التفسير القرآني"[١]. وفي هذا الإطار يندرج تفكير الغزالي النقدي، فهو يتخذ من نصوص القرآن والسنة مادة ومصدرا له، فقد حفلت هذه النصوص بنقد خصوم العقيدة الإسلامية من الكفار والمشركين وأصحاب الديانات الأخرى كالنصارى واليهودي، كما تحدثت هذه النصوص عن مصادر المعرفة ووسائلها وطرقها كالحس والعقل والإلهام والنظر والجدل والتأويل، وكل هذا نجده في فكر الغزالي النقدي، سواء في نقده لوسائل المعرفة وطرقها، أو في نقده لمذاهب المعرفة من فلاسفة ومتكلمين وباطنية ومتصوفة، مما يؤكد أن الغزالي كان يستلهم آراءه من الكتاب والسنة، وذلك بعد أن قرأ الكتاب والحديث منذ سني حداثته ودرس التفسير على يد خيرة الأساتذة والعلماء، وهو بهذا يحدو حدوا علماء الإسلام بمختلف اتجاهاتهم، مثلما يؤكد ذلك "محمد غلاب" في قوله: "الذي لا سبيل إلى الشك فيه أن القرآن هو المنبع الرئيسي الذي

---

[١]. علي سامي النشار، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

انتهل منه أولئك الأعلام رحيق الحكمة العالية وأن إيمانهم بهذه الحكمة القرآنية أبرز وأكمل من تتلمذهم على فلاسفة الإغريق لأنهم يحاولون دائما أن يكبحوا جماح أساتذتهم كلما رأوهم ينحرفون عن الصراط المستقيم، بينما هم يقفون من القرآن موقف الاحترام والإجلال ويبدلون جهودهم في تقديم المعونة إلى العقل تجاه المتشابهات من آياته"[١]، وهذا الكلام ينطبق على الإمام الغزالي مثلما ينضبق على أغلب فلاسفة الإسلام، وليس غريبا أن يكون القرآن من المصادر الأساسية لتفكير الغزالي النقدي، "فالقرآن هو أول كتاب سماوي فرض تعلم الفلسفة على أتباعه فرضا، وأوجب عليهم التفكير في أسرار الكون وخفايا الوجود، ووصف المتأملين في هذا بأنهم وحدهم أولو الألباب، ورمى الذين لا يتدبرون بأنهم لا يعقلون"[٢].

وهكذا، نجد آراء الغزالي النقدية تتفق مع أهداف القرآن والسنة، فكل ما جاء به القرآن والحديث ولم يعارضه البرهان العقلي اعتبر معيارا ومقياسا لليقين، واستنادا لهذا نجد الغزالي يوجه سهام نقده إلى خصومه سواء من الفلاسفة أو من المتكلمين أو من الباطنية أو من المتصوفة، مثلما سنرى ذلك في الفصول اللاحقة من هذا البحث.

---

١ – محمد غلاب، المعرفة عند مفكري المسلمين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، [د،ت] ، [د،ط] ، ص ٧.

٢ – المرجع نفسه ، ص ٨ .

٢ – المدرسة النصية (الفقهاء والمحدثين)

تعتبر المدرسة النصية من المدارس الأساسية في الفلسفة الإسلامية، ونقصد بها مدرسة الفقهاء والمحدثين والأصوليين، وهم الذين يطلق عليهم في الغالب لقب أهل السنة ويشكل المنهج النقدي أحد المعالم الأساسية بالنسبة لهذه المدرسة، ويتجلى ذلك في نقدهم للفرق والمذاهب الأخرى، إسلامية كانت أو غير إسلامية، ولعل مذاهب الفلاسفة اليونان وأتباعهم من متفلسفة الإسلام ممن أطلق عليهم اسم "المشائين المسلمين" هم الأكثر استهدافا لهذا النقد، وهذا النقد في نظرهم يقوم على مبررين أساسيين، أولهما، أن الفلسفة اليونانية فلسفة دخيلة على الإسلام، وهي في مجملها ممزوجة بتفكير ديني وثني، وثانيهما، أنها فلسفة عقلية، تتخذ من العقل منهجا لمعرفة الحقيقة، ولما كانت الفلسفة عند اليونان أما للعلوم جميعا باعتبارها تشمل الإلهيات والطبيعيات والمنطق والرياضيات والسياسة والأخلاق وغيرها، فإن هذه العلوم كانت بدورها مثارا للشكوك وشملها أيضا حكم الفقهاء على الفلسفة، حيث يقول أصحاب هذا الاتجاه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأل ربه أن يعيده من علم لا ينفع إنما قصد علوم الأوائل، وهي علوم الفلسفة اليونانية، وهكذا صار من السهل اتهام الرجل بالزندقة متى نحا في كتبه نحوا فلسفيا[1]، وليس ينجيه من الاتهام أن يكون ثقة في

[1] . توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، مرجع سابق، ص ١٠٧ .

العلوم الشرعية مزاولا للتعاليم الدينية[١]، ومن ثمة، فقد رفض هؤلاء كل محاولة للتوفيق بين الدين والفلسفة، أي بين النقل والعقل، ولم يقتصر أنصار هذا الرأي على ذلك، بل راحوا يستغلون نزعة بعض الخلفاء والأمراء للتنديد والتنكيل بالفلاسفة الذين وصموهم بالزنادقة[*].

ودائرة النقد عند علماء السنة، من فقهاء ومحدثين، لم تقتصر على الفلاسفة وحدهم وإنما شملت إلى جانب ذلك مذاهب العقليين عموما، كالمتكلمين ولاسيما المعتزلة منهم، وذلك لاعتمادهم في تقرير عقائدهم وإثباتها على العقل[٢]، فيما يرى أهل السنة أن الدليل النقلي أولى بالقبول من أي دليل آخر، وفضلا عن هذا الخلاف الذي يتعلق بمنهج المعرفة، أعني أيهما أولى بالقبول والأسبقية العقل أم النقل؟ فإن هذا الخلاف قد شمل الكثير من المسائل الإعتقادية مما هو موضوع العقيدة وعلم الكلام، كمسألة الذات والصفات، ومسألة خلق القرآن التي ترتب عنها ما عرف في تاريخ الفكر الإسلامي بمحنة الإمام" أحمد بن حنبل"[٣]، وهذه المواقف الخلافية هي التي أدت بأهل السنة إلى اتخاذ موقف سلبي معارض لعلم الكلام ككل وللفرق الكلامية الأخرى من معتزلة وخوارج وشيعة وغيرها، وهم يستشهدون في ذلك بحديث الرسول(صلعم):

---

[١] – المرجع نفسه، ص ١٠٩

[*] وقد عرض توفيق الطويل في كتابه : قصة النزاع بين الدين والفلسفة، نماذج وصور عن هذا النزاع، أنظر مثلا: ص ١٠٨ وما بعدها .

[٢] – من النقاط التي تجمع علماء الكلام بالفلاسفة اعتمادهم على العقل مع اختلاف في مفهوم العقل بين الفريقين ، كما سيأتي بيانه.

[٣] ـ أنظر الخلاف حول هذه المسألة في: علي سامي النشار، ج ١، مرجع سابق، ص ٢٥٧

"افترقت اليهود إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة"، وهم يعتبرون أنفسهم هذه الفرقة الناجية .

وفضلا عن نقد العقليين من فلاسفة ومتكلمين، فقد انتقد أهل السنة على غرار ذلك

الباطنية عموما من متصوفة وقرامطة وذلك لقولهم بأن للقرآن ظاهر وباطن، وأن الحقيقة تكمن في معرفة الباطن، أما الظاهر فهو بمثابة القشر من اللب[1]، ولذلك لا بد، في نظرهم، من تأويل ظاهر الآيات والنصوص، وهذا ما يعارضه أهل السنة الذين يتمسكون بظاهر النصوص، وبغض النظر عن القيمة الفلسفية لهذه النزعة النقدية من حيث ما تنطوي عليه من أبعاد فلسفية، فإن معقد الطرافة فيها، هو أنها تتضمن إشارات ومعالم لنزعة فلسفية شكية تتمثل في نقد بعض أسس المعرفة ومصادرها ووسائلها كالعقل والتأويل وغيرها.

ولما كان الباعث الأساسي وراء هذا الموقف النقدي، هو الدفاع عن الدين الإسلامي وعن عقيدة أهل السنة والجماعة بالخصوص، فإن موقف هؤلاء من علوم الأوائل قد تباين بتباين هذه العلوم وموضوعها، حيث" كانت إلهيات أرسطو أولا وبالذات ـ محط السخط عند أهل السنة، إذ اعتبروا مقدماتها ونتائجها متعارضة كل التعارض مع مقتضيات عقائد

[1] - يعتبر هذا الأصل من المبادئ المشتركة بين المتصوفة وغيرهم من فرق الباطنية ـ كما سيأتي ـ

الإسلام ، وتجاوز سخطهم ذلك إلى العلوم الرياضية لأنها تمهد للدراسات الفلسفية، بينما لانت نظرتهم إلى الحساب لأن الاشتغال به من مستلزمات علم الفرائض، فوق أنه يعين الخبراء في أحوال التوريث، أما الهندسة فقد كانت مثالا للشك [...] فقد تحدث أبو الحسين بن فارس في كتابه "الصحابي في فقه اللغة وسند العرب في كلامها" عن خطر الهندسة على الدين مع قلة نفعها، وانتهى إلى أن الخوض في الرياضيات يؤدي إلى الانخلاع عن الدين[١] ولم يكن وضع "المنطق بأحسن حال من الرياضيات والميتافيزيقا، فقد حورب في غير رفق ولا هوادة حتى قيل:"من تمنطق فقد تزندق"، بحجة أن الفلسفة شر، والمنطق مدخل إلي الفلسفة، فالمدخل إلى الشر شر، إلى غير ذلك من الحجج التي تصب في اتجاه تحريمه[٢]، وهذا الموقف ينطوي في الواقع علي أبعاد دينية بحتة، وليست له أبعاد إبستمولوجية، إذ لم ينظر إلى المنطق من حيث قيمته المعرفية، ولا نم حيث كونه مجرد آلة للمعرفة ومدخلا للعلوم، وإنما اقتصروا على النظر إليه من حيث علاقته بالفلسفة، وقد رأينا فيما تقدم حكمهم على الفلسفة بالكفر والزندقة، ولذلك نجد المتأخرين من أنصار هذه المدرسة، كابن حزم والغزالي، قد تداركوا هذا الخلط، فكانوا بذلك أكثر دقة واعتدالا، وسواء أدركوا هذا البعد الفلسفي(الإبستمولوجي) أم لا، فإنهم لا محالة قد ساهموا ولو بشكل غير مباشر في إرساء دعائم

---

١ - توفيق الطويل، مرجع سابق، ص ص (١٠٩ – ١١٠).

٢ – تعد هذه الفتوى، وهي لابن الصلاح، مرجعا للفقهاء المحدثين في حكمهم علي المنطق، أنظر: السيوطي، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، نشره وعلق عليه علي سامي النشار، مطبعة السعادة، مصر، ط ١، (د. ت)، ص ١.

المنهج النقدي في الفلسفة الإسلامية، فهم يمثلون البواكير الأولى للحركة النقدية في الفلسفة الإسلامية التي تبلغ أوجها علي يد المتكلمين من بعدهم[١]، وخاصة على يد الغزالي الذي وجد من دون شك أمامه هذا التراث النقدي واطلع عليه، وذلك باعتباره امتدادا لهذه المدرسة[٢] .

وإذا كان الغزالي لم يذكر لنا ـ كعادته ـ المراجع التي اعتمد عليها في آرائه النقدية، والتي وضعها علماء هذه المدرسة، فإن ذلك غير مستبعد، فنقاط التقاطع بين فكر الغزالي النقدي والفكر النقدي عند أهل السنة كثيرة، رغم أن هذا الاتفاق قد يكون إتفاقيا وصدفيا ليس إلا، إذ ليس هناك دليل ملموس يجزم بوجود هذا التأثير، ولعل من هذه النقاط موقف الغزالي النقدي من الفلسفة وعلومها وخاصة الإلهيات منها، وبالتحديد إلهيات أرسطو، وكذلك تحفظه إزاء الرياضيات وحتى المنطق[٣]، إذ رغم دقتهما على خلاف الإلهيات والطبيعيات ـ إلا أن بعض الآفات تترتب عن دراستهما[٤]، ونسجل هنا نضجا أكبر في تفكير الغزالي النقدي أكثر مما نجده لدى أسلافه من أهل السنة، حيث نميز بين بعدين مختلفين في

---

[١] – يؤكد الدكتور محمد الحسيني أبو سعدة، أن الباقلاني قد تأثر كثيرا بتراث الفقهاء وتفكيرهم النقدي وكان ذلك أحد البواعث الأساسية لاهتمامه بالمنهج النقدي، أنظر المنهج النقدي عند الباقلاني، دار أبو حربية للطباعة القاهرة، مصر، ط١٩٩١،١، ص ٤٦ .

[٢] – ينسب الغزالي إلي المذهب الشافعي في الفقه وهو من أهم المذاهب السنية ، وقد عرف الشافعي ، بآرائه القيمة ، خاصة في نقد المذاهب الأخرى، ولا يستبعد البعض تأثر الغزالي بالشافعي، انظر: زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، دار الفكر، ١٩٨٢، ص ٦٥ . وذكر الغزالي في كتابه إلجام العوام أنه من أتباع المذهب السني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٥، ص ٨٧ وما بعدها

[٣] – تنبه الغزالي إلي أن الفلاسفة يستعملون المنطق أحيانا لاستدراج ضعفاء العقول إلي الاعتقاد بصحة الإلهيات.

[٤] – أنظر هذه الآفات ضمن: الغزالي، المنقذ من الضلال، مصدر سابق، ص ٣٤ .

موقفه النقدي من علوم الأوائل، أحدهما ديني، ويتمثل فيما تتركه هذه العلوم من أثر سلبي على الدين، والآخر معرفي(ابستمولوجي)، ويتمثل في مدى دقة هذه العلوم وصحتها واستيفائها لشروط العلم اليقيني وهو العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه مجال للشك[*]، وهذه إشارة منه لم يسبق إليها من طرف السلف الذين لم يميزوا، كما قلنا، بين الجانب النظري والجانب التطبيقي (العملي) للعلوم.

ومن جهة أخرى، نجد الغزالي يؤكد ما ذهبت إليه المدرسة النصية فيما يخص تحديد العقل، أي، عدم قدرته على معرفة كل ما أخبرت به الشريعة (السمع)، والتأكيد على أولوية النقل على العقل.

وثمة مبدأ آخر يجمع بينهما، ألا وهو مبدأ "عدم الغلو في التكفير"، الذي يعد من المبادئ الأساسية في الفكر الفلسفي، وقد سار الغزالي على هذا النهج، بحيث نجده يدعو إلى كف اللسان عن أهل القبلة ما داموا قائلين "لا إله إلا الله محمد رسول الله" غير مخالفين لأصل من أصول الدين[1]. فالفلاسفة، إذا، استحقوا الكفر لقولهم بقدم العالم، وعلم الله بالكليات دون الجزئيات، وحشر الأرواح دون الأجساد، فخالفوا بذلك ما أجمعت عليه الأمة، وإذا كان الغزالي قد نقد الفلاسفة وكفرهم، فإن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أنه يقف من العقل ـ وهو منهج الفلاسفة ـ

---

*– كل علم لا يتوفر على هذه الشروط لا يعد علما يقينيا في نظر الغزالي، المنقذ من الضلال، مصدر سابق، ص ٢٦.

١ – الغزالي فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ضمن مجموعة رسائل القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي، شركة الطباعة الفنية المتحدة، مصر صفحة ١٤٩ . وكذلك: يوسف القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وقادحيه، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط١، ١٩٨٨، ص ٣٦ .

موقفا عدائيا، بل على العكس من ذلك، فهو يضعه في مرتبة لا يفوقه فيها سوى الإلهام الذي يكون مصدره من الله، وهو بذلك يسير على نهج الذين مجدوا العقل رغم نقدهم للمتكلمين والفلاسفة(**).

ويتبع الغزالي أيضا خطى المدرسة النصية في نقدها للباطنية بمختلف اتجاهاتها، مثلما يتجلى في نقده للتعليمية والمتصوفة، وذلك لقول الفرقة الأولى بمبدأ التعليم من الإمام المعصوم المخصوص بمعرفة الباطن، وابتعاد الفرقة الثانية عن روح الشريعة الإسلامية لقولهم بسقوط التكاليف الشرعية، ولما صدر عنهم من شطحات، وقد سبق إلى هذا النقد من طرف أسلافه، غير أن هذه التقاطعات لا تمنع من وجود اختلافات كثيرة بينه وبين المدرسة النصية في الكثير من المسائل الخلافية، من ذلك مثلا موقفه الإيجابي من المنطق، وهو موقف لم يقل به من الفقهاء السابقين سوى ابن حزم(١)، الذي لا يستبعد تأثر الغزالي به في ذلك(*)، وكذلك قوله على غرار المتصوفة والباطنية بأن للشريعة ظاهر وباطن، وإجازته للتأويل، وموقفه السلبي من الفقه حيث اعتبره من علوم الدنيا ورضاه عن بعض آراء الفلاسفة أو تأثره بها، وبسبب هذه الآراء عانى الغزالي ما عانى من انتقادات من طرف أتباع المدرسة النصية المتأخرين الذين عاصروه أو

** – سنتناول ذلك في المسائل الخلافية بين الغزالي والمتكلمين وذلك ضمن مسألة التحسين والتقبيح.

١ - ابن حزم ، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق إحسان عباس، دار مكتبة الحياة ، بيروت، ١٩٥٩، ص٣٢ وما بعدها.

* – ومن المعروف أن الغزالي وابن حزم ينتسبان إلى المذهب الشافعي في الفقه والمذهب الأشعري في الكلام، غير أنه لا يوجد دليل مادي يثبت تأثر الغزالي بابن حزم.

جاؤوا بعده، كالطرطوشي، والمازري، وابن الجوزي، وابن تميمة، وابن العربي، وغيرهم.

والواقع أن هذه الاختلافات إنما تدل على استقلالية الغزالي وعدم تقليده للمذاهب في كل ما هب ودب، وهذه إحدى سمات الفكر الفلسفي، فهو يأخذ من الآخرين ما يراه موافقا لمذهبه أي ما يراه حقا، وينقذ ما يراه مخالفا له مهما كان قائله ولو من أتباع مذهبه، ولهذا نجد الغزالي قد جدد في كل مذهب انتسب إليه، جدد في الفقه وأصوله، وجدد في التصوف، وفي علم الكلام، فهو فقيه وناقد للفقهاء، ومتكلم وناقد للمتكلمين، وصوفي وناقد للمتصوفة، مما جعله يستحق لقب مجدد المائة الخامسة للهجرة[1].

وما نخلص إليه من هنا، هو أنه بغض النظر عن كون الغزالي قد تأثر بمنهج الفقهاء النقدي أم لم يتأثر، فإنه من المؤكد، وانطلاقا مما ذكرنا، هو أنه ليس كما يقول بعض الباحثين: "لم يسبق في العالم الإسلامي في جعل" النقد أساس المعرفة والاعتقاد وفي البحث الدؤوب من أجل الوصول إلى المعرفة التي جعلها قضية وجودية تتصل بمصير الإنسان ووجوده في الكون وليست وظيفة ترفيهية لا يقوم بها سوى المترفين والعاطلين"[2]، فالغزالي قد سبق إلى هذا النقد من طرف بعض النصيين،

---

[1] – أنظر في ذلك: يوسف القرضاوي، الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه، ص ١٩ وما بعدها وكذلك: عبد المتعال الصعيدي، المجددون في الإسلام، [د.ط]، [د. ت] ، ص ١٩٦ .

[2] – ونقصد بذلك بركات محمد مراد الذي ذهب هذا المذهب في كتابه " الإنسان عند الغزالي"، مرجع سابق، ص ٧٧

ولاسيما من طرف المتكلمين منهم، كما سنرى فيما يلي، والصحيح، أن الغزالي قد عمل عل تثمين هذا المنهج النقدي وتأصيله على نحو ما سيأتي في ثنايا هذا البحث.

٣ـ علم الكلام

يعتبر المتكلمون أبرز تيار نقدي في الفلسفة الإسلامية، ذلك أن غاية هذا العلم، كما يرى الفارابي، هي: "نصرة الآراء والأفعال المحددة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل"[١]، فعلم الكلام، إذا، يهدف إلى الدفاع عن العقيدة الإسلامية وإبطال عقائد خصومها، وهذه الغاية تقتضي النقد منهجا، مما جعل المتكلمين يتميزون بنزعة نقدية واضحة في تفكيرهم، ويتجلى ذلك في مجادلاتهم ومناظراتهم وكتب الرد المختلفة[٢](*)، وخير من مثل هذه النزعة المعتزلة والأشاعرة، وقد كان المعتزلة سباقين في هذا المجال، إذ كانوا من أشد المسلمين دفاعا عن الإسلام وحمية على مخاليفهم في ذلك الزمان[٣]، حيث أبلوا أحسن بلاء في إبطال مذاهب المخالفين من ثنوية على اختلافهم، منانية

---

١ – الفارابي، إحصاء العلوم، حققه وقدم له وعلق عليه عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٦٨، ص ٤٦

٢ – كارا دو فو، الغزالي، تر. عادل زعيتر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص ٥٨ .

* – ما يميز المتكلمين رغم اختلاف الموجود بينهم هو اتفاقهم كلهم في الاتصاف بدعوى دفاعهم عن الدين، وتدرعهم بامتلاك ناصية الحق، ثم أن نقد كل جماعة منهم أو كل فرد لسائر الجماعات أو الأفراد، واستنادهم في تأييد هدا النقد إلى الحجة والدليل، وهذه الحجة نتيجة استخدامهم العقل والنظر العقلي على تفاوت فيما بينهم بحسب تفاوت حظ كل جماعة، أو كل مفكر فرد من الإيمان بمنزلة العقل إلى حد كبير أو صغير" عادل العوا، الكلام والفلسفة، مرجع سابق، ص ١٩ .

٣ – محمد حسني أبو سعدة، المنهج النقدي عند الباقلاني، مرجع سابق، ص ٧٣

وديصانية، ومذاهب الدهرية"[١]، وهم بذلك قد سبقوا الأشاعرة وغيرهم في مجال الجدل والمناظرة والتفنيد والنقد لآراء الخصوم ومذاهبهم، سواء كان هؤلاء الخصوم من أصحاب الفرق الإسلامية أو كانوا من أصحاب الملل والديانات الأخرى المخالفة "وإذا نظرنا إلى الأصول الخمسة التي أقام عليها المعتزلة مذهبهم، وجدناها جميعا تتضمن توجيهات وآراء نقدية وردود على مخالفيهم، فضلا عما تتضمنه من إقرار لدعائم المذهب وأسسه المقررة عندهم، وهاهو القاضي عبد الجبار المعتزلي يقرر أن المقصود من أصولهم الخمسة الرد على المخالفين والكشف عما في مذاهبهم من عورات. فالمقصود بأصل التوحيد، الرد على الملاحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة والمجسمة، وبأصل العدل، الرد على المجبرة من الجهمية أتباع جهم بن صفوان، وبأصل الوعد والوعيد، الرد على المرجئة، وبالمنزلة بين المنزلتين، الرد على الخوارج، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الرد على الشيعة الإمامية"[٢]. ومن أشهر مفكري المعتزلة الذين برعوا في الرد على الخصوم وتركوا لنا مؤلفات نقدية، "القاضي عبد الجبار"، و"إبراهيم بن سيار النظام"، و"الخياط" و"الجاحظ"، وغيرهم كثير، ولا شك أن مؤلفات هؤلاء قد أثرت تأثيرا كبيرا في الفكر الإسلامي، تأثيرا مباشرا أو غير مباشر، وبخاصة، فيما يخص المنهج النقدي الذي امتازت به، ولعل من طرائف التراث الإسلامي، أن المعتزلة، وهم السباقون إلى الدفاع عن العقيدة

---

[١]– أبو ريدة، على هامش دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، مرجع سابق، ص ٧٣.

[٢] – محمد حسني أبو سعدة، مرجع سابق، ص٧٥.

الإسلامية ضد خصومها، قد صاروا في عداد هؤلاء الخصوم، في نظر علماء السنة الذين صار علم الكلام عندهم يعني" الحجاج عن العقائد الإيمانية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب أهل السلف وأهل السنة (الفرقة الناجية)"[١]، ولذلك كرس الأشاعرة ـ وهم متكلموا أهل السنة ـ مذهبهم لنقد المذاهب الأخرى من فلاسفة ومعتزلة وغيرهم من المذاهب المخالفة، وفي هذا الصدد يقول كارادوفوا: "وترجع عادة متكلمي السنة في مناهضة الفلاسفة إلى أوائل المدرسة الفلسفية، وقد رئي هذا الكفاح أمرا ضروريا[...] كما رئيت ضرورة مكافحة المعتزلة، ومهما كان أمر إخلاص الفلاسفة الشخصي كمؤمنين، فإن مذهبهم كان في نظر أشد حفظة الدين تدقيقا خطرا أو صريح الفساد"[٢]، فالأشاعرة، إذا، قد تميزوا بنزعة نقدية إذ أنهم" لم يكتفوا بتقرير مذهبهم والدفاع عن آرائهم، بل إننا نراهم يفيضون في نقد آراء الفرق المخالفة لهم ولهذا نجد عندهم قسما نقديا يتمثل في نقد أصحاب الطبائع ونقد المعتزلة ونقد الفلاسفة، ثم نجد عندهم أيضا جانبا إيجابيا يتمثل في دفاعهم عن موقفهم الذي مالوا إليه وأكدوا على القول به"[٣]، ومن المرجع أن "المواقف النقدية للمعتزلة قد ألقت بانعكاساتها وتأثيرها على مفكري الأشاعرة الذين راحوا ينهجون نهج المعتزلة في الرد على الخصوم وتفنيد مذاهب المخالفين ونقدها. ولا ننسى أن أبا الحسن الأشعري مؤسس المذهب كان في الأصل تلميذا لأبي علي الجبائي

---

[١] – ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت ،[د.ط] ، [د. ت] ، ص ٢٩٠.

[٢] – كارا دو فوا، مرجع سابق، ص ٥٧.

[٣] . عاطف العراقي، تجديد في المذاب الفلسفية والكلامية، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٨٣، ص ٦٥

المعتزلي ثم صار من كبار المعتزلة، غير أنه ترك مذهب الاعتزال وأعلن مذهبه الخاص الذي يخالف في كثير من أصوله مذهب المعتزلة، وأبو الحسن وإن لم يكن قد تأثر إلا بالقليل من آراء المعتزلة، فإنه قد تأثر كثيرا ـ فيما نعتقد ـ بمنهجهم النقدي، أو بتوجيهاتهم النقدية لا بمنهجهم العام في البحث الذي يغلب عليه المغالاة في استخدام العقل، ولا ينبغي الظن بأن هذا التأثير كان هو العامل أو الدافع الوحيد الذي دفع بكبار الأشاعرة من أمثال الأشعري والباقلاني ثم الجويني والغزالي ومن جاء بعدهم من أمثال الشهرستاني والفخر الرازي إلى اتخاذ مواقف نقدية، وإنما كان هذا التأثير المعتزلي عاملا مساعدا أو حافزا على اتخاذ هذه المواقف لا أكثر"[١]، وتعد مشكلة السببية أهم مشكلة خلافية بين الأشاعرة وخصومهم[٢]، إضافة إلى مشكلة قدم العالم وحدوثه، ومشكلة والذات والصفات، ومشكلة التحسين والتقبيح، إلى غير ذلك من المشكلات التي تزخر بها مؤلفاتهم النقدية[٣].

ولا شك أن الغزالي قد وجد بين يديه هذا التراث وأطلع عليه، وليس مستبعدا تأثره بما جاء فيه من آراء نقدية، ولاسيما مؤلفات "إمام الحرمين الجويني" الذي تتلمذ له الغزالي لفترة غير وجيزة، وتولى إمامة المذهب الأشعري بعد وفاته[*]، فضلا عن تأثره بـ "الباقلاني"، صاحب المؤلفات

---

١ - محمد حسني أبو سعدة ، مرجع سابق، ص ٧٥

٢ ـ عاطف العراقي، تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية، مرجع سابق، ص٦٥

٣- انظر: محمد حسيني أبو سعدة، مرجع سابق، ص ٧٥

* ـ وقد أشرنا إلى ذلك في المبحث الخاص بحياته.

النقدية الرائدة[١]، ككتاب "التمهيد" الذي يعتبره البعض مصدرا لكتاب تهافت الفلاسفة[٢]، وكذلك كتاب"كشف الأسرار وهتك الأستار في الرد على الباطنية"، وهو من المؤلفات الرائدة في نقد الباطنية، ومن المحتمل أن يكون مرجعا لكتاب "فضائح الباطنية" للغزالي"[٣]، غير أن فقدان كتاب الباقلاني هذا لا يسمح بتأكيد هذا الاحتمال، وإن كان لا يستبعده.

ونقاط التقاطع بين الغزالي وأسلافه من الأشاعرة كثيرة جدا، من ذلك مثلا، رأيه في مسألة السببية، ومسالة حدوث العالم، ومسألة الذات والصفات، ومسألة التحسين والتقبيح، واتفاقه، خاصة، مع "ابن حزم" في الاعتراف بفضل المنطق وضرورته[٤]. وقد أدى هذا التقاطع ببعض الباحثين إلى اعتبار الغزالي مجرد مقلد للأشاعرة[٥]، غير أن هذا الرأي يفتقد إلى الدقة كونه يتجاهل خصوصيات المنهج النقدي عند الغزالي، وأصالته وإبداعه في هذا المجال، كما يتجاهل نقاط الاختلاف بينهما، وهذا ينطبق على المعتزلة كما ينطبق على الأشاعرة، إذ لا يستبعد تأثر الغزالي ببعض مفكري المعتزلة رغم أنهم من أشد خصوصه، ومن هؤلاء "إبراهيم بن سيار النظام"، ومما يرجع هذا الاحتمال، اعتماد الغزالي على برهان قريب من برهان "النظام" في إبطال القول بقدم العالم[٦]. غير أن

---

[١] . المرجع نفسه، ص ٥٥ وما بعدها.

[٢] . أبو ريدة، مرجع سابق، ص ٣١٧.

[٣] . محمد حسني أبو سعدة، مرجع سابق، ص ٥٥

[٤] . ابن حزم، التقريب لحد المنطق، مرجع سابق، ص ٣٢ وكذلك: الغزالي، المستصفى، مصدر سابق، ص ٧

[٥] . عاطف العراقي، تجديد في المذاب الفلسفية والكلامية، مرجع سابق، ص١٢٣ وما بعدها.

[٦] . أبو ريدة ، مرجع سابق، ص ٣١٧ .

الغزالي ـ كعادته ـ لا يشير إلى المفكرين الذين أخذ عنهم أراءه مما يبقي هذه الاتفاقات مجرد احتمالات وظنون، ولكننا نجد في بعض أقواله ما يدل على أنه كان يستعين بأدلة وآراء الآخرين سواء ممن ينتسبون إلى مذهبه أو من المخالفين له، إذا كان ذلك يفيده في إثبات رأي أوفي نقد آخر، فهو"يستمد أسلحته من جميع الفرق والمذاهب، ويعبئ كنانته من كل سهم يجده عند هذا المذهب أو ذاك"[١]، وهذا ما يؤكده بنفسه، وهو بصدد نقده للفلاسفة، إذ يقول:" ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان وجوه تهافتهم، فلذلك أنا لا أدخل عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا مدع مثبت، فأكدر عليهم ما اعتقدوه، مقطوعا بإلزامات مختلفة، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطورا مذهب الواقفية ولا أنتهض ذابا عن مذهب مخصوص، بل أجعل جميع الفرق إلبا واحدا عليهم، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفاصيل،وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين، فلنتظاهر عليهم، فعند الشدائد تذهب الأحقاد"[٢][*]، ويفهم من هذا القول، أن الغزالي لا يرى حرجا في الاستعانة بمذهب المعتزلة أو الكرامية أو الواقفية، ناهيك عن الأشاعرة، وسنرى لاحقا كيف أن بعض الباحثين

---

[١] . يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٢٨

[٢] الغزالي، تهافتت الفلاسفة، دار المشرق، بيروت، ط٣، (د.ت)، ص٤٦ .

[*] . يعقب يوسف القرضاوي على هذا النص قائلا: "وما أحق مسلمي اليوم أن يستفيدوا من هذا الدرس من الإمام الغزالي، فينسوا خلافاتهم الجزئية، ومعاركهم الجانبية، فيقفوا إلبا واحدا على أعداء الإسلام وما أكثرهم". القرضاوي، الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه، مرجع سابق، ص٢٩.

يقولون بأن الغزالي قد اقتبس بعض أدلة "يحيي النحوي" في الرد على "برقلس" في مسألة قدم العالم.

والواقع أن هذه الظاهرة، المتمثلة في الاستعانة بأسلحة الخصوم الفكرية، لا تقتصر على الغزالي وحده، بل تكاد تكون سمة من سمات المناهج النقدية في الفلسفة سواء الإسلامية منها أو غير الإسلامية، فقد تأثر أرسطو بأفلاطون خاصة في نقده للسوفسطائية رغم أنه من أكبر نقاده، إذ يقول:"إني أحب أفلاطون ولكن حبي للحقيقة أكبر"[١]، وقد تأثر "أبو البركات البغدادي" بابن سينا في الوقت الذي كان ناقدا له[٢]، ومثلما تقدم، فإن الأشاعرة قد نقدوا المعتزلة دون أن ينفي ذلك تأثرهم بهم، ولا يستثنى الغزالي من هذه الظاهرة، فقد تأثر بالفلاسفة كالفارابي وابن سينا وكان ناقدا لهم، وتأثر بالمتصوفة ونقدهم، كما نقد المتكلمين وهو معدود منهم ومتأثر بهم، وهذا ينطبق أيضا على نقاد الغزالي كابن رشد وابن سبعين وأبو بكر بن العربي ومحي الدين بن عربي وابن تيمية وغيرهم من الذين نقدوا الغزالي وفي نفس الوقت تأثروا به .

وإذا كان الغزالي لم يتأثر بآراء المتكلمين إلا قليلا، فإن الأثر الكبير لهؤلاء يكمن في منهجه النقدي، حيث نجده يستخدم أساليبهم وآلياتهم في الرد والجدل والنقض والاعتراض والاستدلال، كإيراد قول الخصم ثم الرد عليه ثم افتراض اعتراض من الخصم ومناقشته وهكذا حتى يقيم الحجة على

---

[١]– وولترستيس، مرجع سابق، ص ٨٩ .

[٢] محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢ ،١٩٧٦، ص ٢٨٦ .

الخصم[١]، إضافة إلى الآليات الأخرى التي تزخر بها مؤلفات المتكلمين النقدية[٢]، وقد كانت هذه المؤلفات بين يديه، ومن المرجع أنه استفاد منها إلا أنه قد أضاف وأبدع ولم يكتف بالتقليد، فكان بذلك مفكرا أصيلا في منهجه النقدي مثلما أكد بنفسه وهو بصدد نقد المتكلمين.

٤ـ التصوف

يمكن القول منذ البداية بأن المتصوفة لم يتركوا مؤلفات نقدية تحدد منهجهم النقدي، مثلما فعل المتكلمون، ولم يهتموا كثيرا بمجادلة ومناظرة الخصوم، خلافا لما فعل الفقهاء والمتكلمون[*]، غير أن ذلك لا يعني أن تفكيرهم يخلو من هذه النزعة النقدية التي يمكننا أن نلمس معالمها من خلال بعض آرائهم ومواقفهم، فالمعروف أن المعرفة عندهم تقوم على أساس الإشراق والذوق والإلهام، أي أن الحقيقة عندهم لا تحصل بالعقل ـ النظر والاستدلال ـ ولا بالحواس، وإنما عن طريق القلب(الكشف) والذوق، قال تعالى: "لهم قلوب لا يفقهون بها" [الأعراف: ١٧٩]، وقال سبحانه وتعالى: "إنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" [الحج :٤٦]، ومعنى هذا، أن المتصوفة يرفضون المعرفة الحاصلة عن طريق الحواس

---

١ – أنظر أساليب المتكلمين في الاعتراض ضمن طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٤، ص ٧٧ .

٢ – أنظر، على سبيل المثال، ما كتبه محمد حسني أبو سعدة عن المنهج النقدي عند الباقلاني في رسالته: المنهج النقدي عند الباقلاني، مرجع سابق، ص ٧٦ وما بعدها .

* – لعل ذلك يرجع لكونهم كانوا دائما في موقع ضعف سياسيا ودينيا، لأن آراءهم كانت مرفوضة من قبل رجال الدين والحكام وعامة المسلمين ولهذا غالبا ما نجدهم يتسترون بآرائهم خاصة بعدما تعرض بعضهم إلى القتل كالحلاج والسهروردي

والعقل ولا يرضون بغير نور البصيرة بديلا، ويترتب عن هذا أنهم يعارضون المذاهب الأخرى من فلاسفة ومتكلمين وفقهاء، وهذه أولى معالم النزعة النقدية عندهم، فالمتصوفة على اختلاف مذاهبهم يقللون من دور العقل في المعرفة، خاصة وأن المعرفة تتمثل عندهم في الميتافيزيقا (التوحيد)، أي معرفة الله عز وجل وصفاته، وهذه هي المعرفة الحقيقية في نظرهم .

وتعتبر مسألة تحديد العقل من المسائل الأساسية في منهج الغزالي النقدي، ونقده للفلاسفة يقوم أساسا على هذه المسألة ـ كما سيأتي ـ حيث أعاب عليهم اعتمادهم على العقل في المسائل الميتافيزيقية مما جعل آراءهم تتناقض وتتهافت، وليس مستبعدا تأثر الغزالي في هذه المسألة بالمتصوفة، خاصة وأنه نشأ وتربى في أحضان الصوفية، وتتلمذ عليهم، واطلع على مصنفاتهم، ومن الذين نذكرهم في هذا السياق ممن ذكرهم الغزالي نفسه، "الحارث المحاسبي" وكذلك "أبو طالب المكي" صاحب كتاب "قوت القلوب في معاملة المحبوب" الذي يعده البعض مصدرا لكتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي[1]، وكذلك الإمام "الشافعي"، و"المازني" و"حرملة" و"الجنيد" و"الفارمدي" و"القشيري" بدرجة أكبر صاحب الرسالة المعروفة بـ"الرسالة القشيرية"، ويظهر جليا تأثر الغزالي بهذه الرسالة[2][*]، ولعل هذا الأثر يأتي عن طريق "الفارمدي" تلميذ

---

[1] – زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، دار الفكر، بيروت، [د .ط]، ١٩٨٢، ص ٦٣ .

[2] – عبد الأمير الأعسم، الفيلسوف الغزالي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨١، ص ١٣٩ وما بعدها

[*] – يمكن الإشارة هنا إلى أن أغلب المتصوفة الذين تأثر بهم الغزالي هم من الشافعية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشافعية عموما يغلب عليم الميل إلى التصوف إن لم يكونوا من المتصوفة، وهذا بدءا بمؤسس المذهب الإمام محمد

القشيري وأستاذ الغزالي، ومما أخذه الغزالي عن "الفارمدي" دفاعه عن الحلاج صاحب فكرة الحلول الذي صلب وهو حي بعد أن ظهر عنه ادعاؤه بأنه الله، حيث قال: "أنا الحق"، وقال: "سبحاني ما أعظم شأني"، وقوله:" ما في الجبة إلا الله"، وغير ذلك من الأقاويل، وهناك مسألة أخرى في مذهب المتصوفة كان لها أثر كبير في فكر الغزالي النقدي وهي مسألة التوفيق بين التصوف والشريعة، فبعد القطيعة التي وجدت بينهما إذ يعتبر المتصوفة أنفسهم من أهل الباطن، بينما يعتبر الفقهاء أنفسهم أهل الظاهر، ولهذا نجد أغلب المتصوفة يتخذون موقفا سلبيا من الفقه، وفي نفس الوقت نجد الفقهاء ينتقدون المتصوفة.

لقد حاول بعض المتصوفة تقريب الصلة بينهما، ويعتبر "القشيري" أول من أناط بهذه المهمة في رسالته المذكورة آنفا التي"وجهها إلى الجماعات الصوفية في كافة البلاد الإسلامية، ويميل فيها إلى إقرار الوفاق والانسجام بين الشريعة والتصوف"[1]، يقول منتقدا طائفة من المتصوفة الذين استخفوا بأحكام الشريعة وبأداء العبادات:" مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء[...] وارتحل عن القلوب حرفة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات [...]

ابن إدريس الشافعي، والغزالي قد ساير، باعتباره شافعي المذهب هذا التوجه، أنظر: عبد الأمير الأعسم، مرجع سابق، ص ١٣٩ و ما بعدها

[1] غولد زهير، العقيدة والشريعة في الإسلام، تر محمد يوسف موسى وآخرون، دار الكتب الحديثة، مصر، ط ٢، ص ١٤٥.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال[....] وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية"[١].

ومبدأ التوفيق بين التصوف والشريعة هذا، يعتبر مبدأ أساسيا في منهج الغزالي النقدي، فقد اعتمد عليه في نقد المتصوفة الذين ادعوا سقوط التكاليف عن المتصوف إذا بلغ درجة معينة من درجات التصوف[٢]، وعمم ذلك على الفلاسفة أيضا، لأنه يرى بأن العلم والعمل لا ينفكان عن بعضهما، ومهما بلغ الإنسان من الحكمة فلن تسقط عنه التكاليف، يقول منتقدا الفلاسفة في هذا الصدد:" أما بعد فإني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون [...] وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم[...] وحكايتهم عنهم أنهم مع رزانة عقلهم وغزارة فضلهم، منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل

---

[١] – القشيري، الرسالة القشيرية، نقلا عن: غولد زهير، مرجع سابق، ص ١٥٤.

[٢] عبد الحليم محمود، دراسة على هامش المنقذ من الظلال، دار الكتاب الحديثة، مصر، ط٦ ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٦.

مزخرفة"[١]. فالغزالي، إذا، يعتبر كل من أنكر الشريعة أو ادعى سقوط التكاليف الشرعية عنه قد ضل وكفر مهما كان مبرره في ذلك، لأن الرسل والأنبياء كانوا من أكثر الناس تعبدا والتزاما بالتكاليف الشرعية من عبادات وشعائر دينية رغم أنهم كانوا الأكثر علما وحكمة، والواقع أن ما يذكره الغزالي هنا عن الفلاسفة لم يصدر عنهم ولم يذكر في مؤلفاتهم، اللهم ما قيل عن تصرفات وأفعال بعضهم ـ كابن سينا ـ المنافية للشريعة كالمجون وغير ذلك من التصرفات التي يمكن لأي مسلم، مهما كانت عقيدته، أن يقع فيها تحت تأثير الشيطان وهوى النفس، فلا يمكن اتهام الفلاسفة، إذا، بهذا طالما أنه ليس من مبادئ فلسفتهم، وربما كان هذا من جملة التهم الباطلة التي قيلت في نقد الفلاسفة من طرف خصومهم، كما أن هذه العقيدة ليست بعقيدة المتصوفة، وربما اتهموا بذلك نتيجة لما استخدموه من رموز وإشارات في عباراتهم، فأخذ البعض بظاهر هذه العبارات دون الانتباه إلى أنها لا تعبر عن الحقيقة عند المتصوفة، بل إنهم أفرطوا في ذلك، حتى أعاب عليهم خصومهم هذه الرهبانية.

وبغض النظر عن صحة ما نسب إلى الفلاسفة والمتصوفة، فإن ما يهمنا هنا هو أن الغزالي قد حرص على بيان أهمية الشريعة وضرورتها وأنها أولى من أية حكمة أخرى، وقد كان هذا أهم البواعث والأبعاد الأساسية لمنهجه النقدي[٢]. وبهذا يكون الغزالي قد ساهم في تقريب الصلة بين

---

[١]. الغزالي، التهافت، مصدر سابق، ص ص (٣٧ -٣٨).

[٢]- ويتضح ذلك في نقده للعلماء والفقهاء والتدين المغلوط والمغشوش والفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة. أنظر: يوسف القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وقادحيه، مرجع سابق، ص ٨١ وما بعدها.

الفكر الصوفي والفكر السني، فأكمل بذلك الدور الذي قام به "القشيري" و"الفارمدي"[١]، وصار يطلق على هذا التصوف اسم "التصوف السني" في مقابل التصوف الفلسفي، غير أن هذا لا يعني أن الغزالي قد وافق المتصوفة في كل ما ذهبوا إليه، بل إنه نقدهم كما نقد غيرهم من المذاهب، مثلما سنرى ذلك لاحقا .

ثانيا: المصادر الخارجية (الفلسفة اليونانية)

يعتبر المنهج النقدي من المقومات الأساسية للفلسفة اليونانية شأنها في ذلك شأن الفلسفات الأخرى، وقد اتخذ النقد عند فلاسفة اليونان أشكالا وأبعادا مختلفة كنقد المذاهب المخالفة وما اشتملت عليه من آراء فلسفية، ونقد مناهج وأسس ومصادر المعرفة التي استندت إليها هذه المذاهب والمتمثلة خاصة في الحواس والعقل باعتبارهما المصدرين الأساسيين للمعرفة عند فلاسفة اليونان، ويعد الشاك بمختلف اتجاهاتهم أبرز تيار نقدي في الفلسفة اليونانية، والسؤال المطروح، هل تأثر الغزالي بالآراء النقدية في الفلسفة اليونانية وهو الخصم اللدود لها؟

من المعروف أن الفلسفة اليونانية قد انتقلت إلى البيئة الإسلامية بطرق مختلفة كالترجمة[٢]، وقد تباينت مواقف المفكرين المسلمين من هذه

---

[١]- عبد الأمير الأعسم، مرجع سابق، ص ١٤٦ وما بعدها.

[٢] فيما يخص طرق انتقال الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ينظر: علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ١ وما بعدها. وكذلك: محمد الهي، الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٧٢، ص١٧٩. وأيضا: حنا الفاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ج٢ ، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٢، ص٥ وما بعدها.

الفلسفة بحيث انقسموا إزاءها إلى ثلاثة مواقف أساسية[١]: موقف المعارضين المتشددين الذين رفضوا هذه الفلسفة وعارضوها جملة وتفصيلا وكادوا لأصحابها وأنصارهم العداء واصفينهم بالكفار والزنادقة، ويمثل هذا الموقف بعض رجال الدين من فقهاء ومحدثين، أما الموقف الثاني فهو موقف المؤيدين، ويمثله الفلاسفة المشائيين وعلى رأسهم الكندي والفارابي وابن سينا وإخوان الصفا، وأما الموقف الثالث، فهو موقف المؤيدين المتحفظين أو المعترضين المتحفظين، وهم الذين لم يؤيدوا هذه الفلسفة ولم يعارضوها جملة وتفصيلا، بحيث نجدهم قد اعترضوا على بعض علوم الفلسفة كالميتافيزيقيا وارتضوا بعضها الآخر كالمنطق والرياضيات، ومن هؤلاء ابن حزم والغزالي وبعض متكلمي المعتزلة .

وأيا كان موقف المسلمين من هذه الفلسفة فإنهم قد أطلعوا عليها واتصلوا بها فتأثروا بها حينا وعارضوها أحيانا أخرى، لأسباب مختلفة، وهذا ينطبق على فيلسوفنا الغزالي، فقد عبر صراحة عن موقفه النقدي من الفلسفة اليونانية وبخاصة فلسفة أفلاطون وأرسطو، أشهر فلاسفة اليونان عند المسلمين، ومن نحا نحوهما من فلاسفة الإسلام وخاصة الفارابي وابن سينا باعتبارهما الأكثر تأثرا بالفلسفة اليونانية قبل ابن رشد وقد بلغ الأمر أن كفر هؤلاء جميعا. غير أن ثمة جانب آخر "لا مقول ولا منطوق" في فلسفة الغزالي، وهو موقفه الإيجابي منها، المتمثل في تأثره ببعض

---

[١] ـ محمد البهي، مرجع سابق، ص٢١٧ وما بعدها.

الآراء التي قال بها فلاسفة اليونان(*) وكذا رضاه عن بعض علومهم الفلسفية وبخاصة الرياضيات والمنطق والأخلاق والسياسة[١]، ولعل هناك ما يبرر موقف الغزالي هذا الذي يتراوح بين المعارضة والقبول، فهو يرى بأن" الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها"، وهذا يعني أنه لا ضير في الاستفادة من الحكمة اليونانية أو غيرها إذا كانت تشتمل على الحق، وهو يقول: "لا تعرف الحق بالرجال بل أعرف الحق تعرف أهله، ومع ذلك، فإنه لا يوجد دليل ملموس على تأثر الغزالي بالفلسفة اليونانية، طالما أنه لم يعبر صراحة عن هذا الإعجاب مثلما عبر عن نقده لها، مما يبقى مسألة تأثره بها مجرد افتراض قوي إذ هناك معالم كثيرة تبرر مشروعية قيامه، فالغزالي، كما ذكر بنفسه، قد أطلع على الفلسفة اليونانية لا من خلال أستاذ وإنما من خلال مطالعاته الحرة لكتب الفلسفة التي كانت تقع بين يديه معتمدا في ذلك خاصة على ما كتبه الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا، ولما كان ينوي من خلال ذلك الرد على الفلاسفة، وبما أنه يشترط معرفة المذاهب قبل نقدها، فمن المفترض أنه أخد يطالع كل ما يقع بين يديه من مؤلفات فلسفية، خاصة وأنه لم يكن موجها من قبل أستاذ[٢]، ولم يكن له علم مسبق بمذاهب الفلاسفة، ولعل من جملة ما قرأ الغزالي ويفترض أنه تأثر به، مذهب السفسطائيين (الشكاك)، ومذهب

---

* - في الواقع أنه ليس هناك دليل على تأثر الغزالي بهؤلاء، كما أنه لا يوجد دليل على انتمائه، لأن الغزالي لا يحيلنا إلى المراجع التي أخد منها آراءه إلا نادرا وعليه فإن الاتفاق في الأفكار قد يكون صدفيا إتفاقيا ليس إلا، خاصة إذا كانت هذه الأفكار حقيقية والحق لا يضاد الحق سواء صدر عن هذا أو ذاك.

١- زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص٥٥.

٢- يرى زكي مبارك أن قراءة الغزالي للفلسفة من غير استعانة بأستاذ هو الذي جعله يقف منها هذا الموقف النقدي المتشدد، لأن الأستاذ غالبا ما يكون له سلطان على التلاميذ، الأخلاق عند الغزالي، مرجع سابق، ص٨٤.

القائلين بحدوث العالم. فقد عرف المسلمون مذهب الشكاك اليونان معرفة تامة، كما تدل على ذلك مؤلفاتهم، وانتشرت آراؤهم في كتب الكلام والفلسفة عبر طرق مختلفة، وكانوا يذكرون في الغالب في موضع النقد ولعل ذالك يعود إلى كون المسلمين قد تعرفوا على هذا المذهب من خلال أفلاطون وأرسطو، وهما من أشد خصوم السفسطائية، لقد عرف المسلمون السفسطائية تحت اسم مبطلي الحقائق، وعرفوا شكهم في العقليات والحسيات، واعتبارهم الوهميات فقط هي مقياس المعرفة الإنسانية وعرفوا أدلتهم على ذلك، والجدير بالانتباه أن اسم السفسطائية عند المسلمين يشمل ثلاثة مذاهب أساسية، هي: مذهب بروتاغوراس (العندية)، مذهب جورجياس (العنادية) ومذهب بيرون (اللاأدرية)[١]، وإذا كانت معرفة المسلمين بمذهب الشكاك أمرا مؤكدا[٢]، فليس مستبعدا أن ينطبق ذلك على الغزالي أيضا، ففضلا عن أنه قد ذكر اسم السفسطائية في غير ما موضع من مؤلفاته(٣)، نجده يستخدم بعض أدلتهم للبرهنة على خطأ الحواس والعقل ونسبية المعرفة[٤]، وكما استعمل الغزالي أدلة السفسطائيين ولا يستبعد تأثره بهم، فإنه من غير المستبعد تأثره بمذهب القائلين بحدوث العالم، ونخص بالذكر"جون فيلوبونوس" المعروف

---

[١] . علي سامي النشار، مرجع سابق، ص ١٦٣.

[٢] . كما تدل على ذلك كتاباتهم، أنظر على سبيل المثال ما كتبه أبو منصور الماتريدي عن مذهبهم، ضمن: النشار، ج١، ص ١٦٣ .

[٣] . مثل : المنقذ من الضلال، ص٣٦ . معيار العلم ، تح : سليمان دنيا ، دار المعارف، القاهرة، ط ١ ، ١٩٦٤، ص ١٠٩.

[٤] - من هذه الأدلة، رؤية الأجسام الكبيرة كالشمس والقمر في حجم صغير نظرا لبعدها، وتناقض العقلين فيما بينهم .

بـ"يحي النحوي"، الذي رد على "برقلس" في مسألة قدم العالم[١]، وقد عرف رأي كلا منهما في الفكر الإسلامي فضلا عن أثرهما، فقد كتب "برقلس" كثيرا عن أفلاطون، ونقلت كثيرا من كتبه إلى العربية، وقد كتب الشهرستاني صحائف ممتازة عنه[*]، وعرض لشبهه في قدم العالم وأزلية الحركات، وقد شغلت هذه المسائل الفكر الإسلامي وحاول المتكلمون نقضها "وربما اعتمدوا في ذلك على كتاب "يحي النحوي" في الرد على حجج "برقلس" في قدم العالم، وقد عرف الإسلاميون كتاب يحي النحوي، ويرى البعض أن الغزالي قد تأثر به، وأن كتابه "تهافت الفلاسفة" الذي رد فيه على الفلاسفة في مسألة قدم العالم مستمد من كتاب يحي النحوي هذا، خاصة وأن برقلس قد أثر في الفارابي وابن سينا تأثيرا واضحا، وقد وجه الغزالي نقده بالخصوص إلى هذين الفيلسوفين[**]، ويذهب البعض من جهة أخرى إلى أن يحي النحوي (جون فيلوبون) قد تأثر بالشكاك اليونان، وأن الغزالي قد تأثر بهؤلاء، بدليل أن أغلب ما كتبه في التهافت ليس إلا ترديدا لكتب سكستوس أمبريكوس[٢].

وبصدد الرد على هذا الرأي، نؤكد مرة أخرى أن التوافق في فكرة ما بين فيلسوفين ليس دليلا على تأثر أحدهما بالآخر، فقد يكون هذا التوافق

---

١. دي بور، مرجع سابق، ص ٢١٣. وكذلك. النشار، مرجع سابق، ج١ ،ص ١٨٣.

*- الشهر ستاني، الملل والنحل، ج٣، ص٧٨، المطبوع على هامش، الفصل في الملل والنحل لابن حزم، المجلد الثاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠ .

**. رغم أن الكندي من أنصار المدرسة المشائية، إلا أنه خلافا للفارابي و ابن سينا يقول بحدوث العالم .

٢- فيما يخص مذهب سكتوس أمبريكوس الشكي، أنظر: بدوي عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٧٩ ، ص ٨٤ وما بعدها.

نتيجة لكون هذه الفكرة صحيحة، وبالتالي فالتفكير الصحيح يقود حتما إلى هذه الفكرة، ومثلما يقول الغزالي:" لا تعرف الحق بالرجال بل أعرف الحق تعرف أهله"، وإن كان احتمال تأثر الغزالي بهذا الرأي أو ذاك وارد، فالغزالي لا يضيره إظهار الحق سواء على يديه أو على يد غيره.

المبحث الثالث: أهم مؤلفاته النقدية

أشرنا فيما سبق إلى مصادر التفكير النقدي عند الغزالي، وبذلك نكون قد ألمحنا إلى بعض معالم النزعة النقدية عنده، وتكريسا لهذا المطلب، أعني، توضيح هذه النزعة، سنقوم فيما يلي بعرض موجز لأهم مؤلفات الغزالي النقدية لنتعرف من خلال ذلك على موضوعها ومنهجها ومقصدها من غير سرد ممل أو إسهاب مخل، مركزين على ما يخدم غرضنا من هذا البحث، وهو، الإجابة على الإشكاليات الرئيسية حول منهج الغزالي النقدي، فما هي يا ترى أهم هذه المؤلفات؟.

يعد "أبو حامد الغزالي" من أغزر فلاسفة الإسلام إنتاجا، وذلك بالنظر إلى كونه لم يعمر طويلا(٤٥٠هـ/٥٠٥هـ)، وليس غرضنا الآن وضع قائمة وجرد لمؤلفاته، فذلك عمل قد كفانا جهده بعض الباحثين[1]، وإنما يهمنا فقط إبراز تفكيره النقدي من خلال بعض مؤلفاته، التي يمكن أن نصطلح عليها بـ "المؤلفات النقدية" في مقابل المؤلفات الإيجابية، وهي التي لا يظهر فيها بجلاء تفكيره النقدي إذ كانت أقرب إلى إثبات آرائه منها إلى

---

[1]- من هؤلاء مثلا: عبد الرحمن بدوي في كتابه: مؤلفات الغزالي، وكذلك: عبد الأمير الأعسم في كتابه: الفيلسوف الغزالي، ص ١٨٠ وما بعدها.

نقد الآراء المخالفة، غير أن ذلك لا يعني أن الغزالي قد فصل فصلا مطلقا بين هذين الجانبين من تفكيره، أي، الجانب الإيجابي والجانب النقدي، بحيث نجد بعض المؤلفات قد جمعت بين الجانبين معا، مثلما سيتضح فيما بعد، وما يلاحظ على مؤلفات الغزالي هو أنها تتنوع في موضوعها وأسلوبها وغرضها، وهذا التنوع يعكس لنا بجلاء شخصيته الفكرية المتسمة بتعدد مذاهبه وسعة ثقافته، فهو"يبدو مزاجا من علوم شتى أنضجها البحث، وصقلها التفكير، وأصفتها تجاربه، وشكوكه القاسية التي عاناها في نشأته"[1]، فمن هذه المؤلفات ما تناول علم الكلام، وأهمها:"الإقتصاد في الاعتقاد" الذي ألفه سنة (٤٨٨هـ)، وفيه عرض آراءه الكلامية في أسلوب موجز بعيد عن التفرعات والإلتواءات في الاعتقاد التي كثيرا ما تتميز بها كتب المتكلمين، وهذا الكتاب يعكس شخصية الغزالي المتكلم الأشعري، وحامل لواء المذهب بعد الأشعري والباقلاني والجويني وغيرهم من أئمة هذا المذهب، حيث عرض الغزالي هنا مذهب الأشاعرة في أمهات المسائل الكلامية منتقدا، على غرار أسلافه وأساتذته، مذهب المعتزلة متهما إياهم بالتعطيل، وكذلك الحشوية الذين توقفوا عند ظاهر النصوص وامتنعوا عن التأويل، خلافا للمعتزلة الذين أفرطوا فيه، فاتهمهم لذلك بالجمود[2]، ومن هنا جاء عنوان الكتاب "الإقتصاد في الاعتقاد"، ليدل على الاعتدال، أي، الوسطية بين الذين جمدوا على التقليد وإتباع ظاهر الشرع، وبين المتفلسفين الذين تطرفوا في الآراء

[1] – عبد الأمير الأعسم، مرجع سابق، ص ٦٣ .

[2] – الغزالي، الإقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ١٣٢ .

والتأويلات حتى ابتعدوا عن الدين أو تركوه، دون تكفير أي منهم[١]. وفي علم الفقه وأصوله ألف كتبا عدة، قال: "فصنفت كتبا كثيرة في الفقه وأصوله"[٢] ككتاب "تهذيب الأصول"، وكتاب "المنخول في علم الأصول"، غير أن أهمها وأشهرها كتاب "المستصفي في علم الأصول"، يقول ابن خلدون:" إن من أحسن ما كتب فيه المتكلمون في علم أصول الفقه كتاب البرهان لإمام الحرمين الجويني، والمستصفى للغزالي، وهما من الأشعرية"[٣]، ولعل الغزالي يقدم لنا في مقدمة كتاب "المستصفى" التبرير الكافي لأهمية الكتاب وقيمته، حيث قال: "فاقترح علي طائفة من محصلي علم الفقه تصنيفا في أصول الفقه أصرف العناية فيه إلي التلفيق بين الترتيب والتحقيق وإلى التوسط بين الإخلال والإملال على وجه يقع في الفهم دون كتاب "تهذيب الأصول" لميله إلي الاستقصاء، وفوق كتاب "المنخول" لميله إلي الاختصار، فأجبتهم إلى ذلك مستعينا بالله، وجمعت فيه بين الترتيب والتحقيق لفهم المعاني، فلا مندوحة لأحدهما عن الثاني، فصنفته وأتيت فيه بترتيب لطيف عجيب يطلع الناظر في أول وهلة على جميع مقاصد هذا العلم ويفيده الاحتواء على جميع مسارح النظر فيه، فكل علم لا يستولي الطالب في ابتداء نظره على مجامعه ولا مبانيه فلا مطمع له في الظفر بأسراره ومباغيه، وقد سميته كتاب "المستصفى من علم الأصول"[٤].

---

[١] – عمر فروخ ، الفكر العربي ، دار الكتاب اللبناني، [د.ط]، ص ٢٨٨ .

[٢] – الغزالي ، المستصفي، مصدر سابق، ص ٤ .

[٣] – نقلا عن: عمر فروخ، الفكر العربي، مرجع سابق، ص ٢٩٠

[٤] – الغزالي ، المستصفي، مصدر سابق، ص ٤ .

وأغلب مؤلفات الغزالي موضوعها في الأخلاق والتصوف، ولاشك أن كتاب"إحياء علوم الدين" يأتي في مقدمتها، وقد ألفه على فترات بدءا من سنة (٤٨٨ هـ) فهو"من أوسع كتبه وأدلها على اتجاهه العملي في الحياة وعلى سلوكه الصوفي في العبادة والتفكير والمعاشرة، وهو كتاب يجمع بين الأخلاق والفقه والتصوف"[١]، وبعد "الإحياء" ألف رسالة صغيرة في حجمها كبيرة في قيمتها، ألا وهي رسالة "أيها الولد المحب"، وذلك سنة (٥٠١هـ)[٢]، وقد ضمنها نصائح ووصايا وتوجيهات أخلاقية[٣]، وأما كتاب"ميزان العمل" فلا يقل عنها أهمية، إذ ينطوي على آثار فلسفته في الأخلاق والسلوك، وعنوانه يدل على مقصده، فقد أراد من خلاله أن يحدد معيارا وميزانا للأخلاق يميز بفضله بين العمل الصالح (المسعد) والعمل الطالح (المشقي)، وذلك على غرار وضعه كتاب "معيار العلم" وكتاب "محك النظر"، ليبين معيار وميزان النظر الذي يميز بفضله بين التفكير الصحيح والتفكير الفاسد ونعني به علم المنطق، والذي قال الغزالي في شأنه: "من لا يحيط بمقدمة العلوم [يقصد علم المنطق] فلا ثقة له بعلومه أصلا"[٤]، فقد وضع الغزالي إذن معيارا للنظر ومعيارا للعمل، ومن رسائله الشهيرة أيضا في الأخلاق والتصوف، كتاب "كيمياء

---

[١] – عبد الرحمن مرحبا ، مرجع سابق، ص ص(٦١٣ – ٦١٤).

[٢] – عمر فروخ، مرجع سابق، ص ٢٩٠ .

[٣] – الغزالي، رسالة أ يها الولد ، طبعت ضمن مجموعة رسائل القصور العوالي من رسائل الغزالي، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، مصر، ص ٩٧ وما بعدها. .

[٤] الغزالي، المستصفي ، ص ١٠ .

السعادة"[١]، وكتاب"مشكاة الأنوار"، و"الرسالة الوعظية"، و"رسالة الطير"، و"المظنون الصغير"، و"المظنون الكبير"، و"منهاج العارفين"، و"روضة الطالبين"[٢]، وقد كتب بعض هذه المؤلفات بلغة صوفية في منتهي الرمزية والتجريد وهي الرسائل المظنون بها على غير أهلها، حيث يقسم الغزالي الناس إلى أصناف، وطبقا لذلك فهو يميز بين مستويات الخطاب، وهو يتفق مع بعض فلاسفة الإسلام في أن الحكمة لا تقال للجمهور، ولعل الأسلوب الذي اتبعه الغزالي في هذه المؤلفات هو الذي أدى بالبعض إلى التشكيك خطأ في نسبة هذه المؤلفات إلى الغزالي، ونقصد هنا بالتحديد رسالة "مشكاة الأنوار".

ولا يقل اهتمام الغزالي بالمنطق عن اهتمامه بالعلوم العلمية كالفقه والأخلاق والتصوف، وهذا راجع لموقفه الإيجابي منه والذي يتفق وموقف ابن حزم، كما سبقت الإشارة إلي ذلك، ومن أهم مؤلفاته المنطقية كتاب "معيار العلم" وكتاب "محك النظر"، وكما هو واضح من عنوان الكتابين فإن الغزالي يعتبر المنطق مقياسا للعلم والنظر، فبفضله يتم التمييز بين صحيح الفكر وفاسده، وفي كتابه "القسطاس المستقيم" يعتبره ميزانا للمعرفة، كما يرى بأن أشكال القياس المعروفة هي موازين

---

[١]- هذا الكتاب ألفه الغزالي بالفارسية وله ترجمة عربية، غير أنه ثمة فوارق جمة بين النسختين، المحقق محمد عبد العليم، مكتبة القرآن، القاهرة، [د.ت]، ص ١٦

[٢] هذه الرسائل جمعت إلى جانب رسائل أخرى ضمن مجموعة واحدة بعنوان القصور العوالي من رسائل الغزالي.

القرآن[١]، وهذا موقف ينطوي على جرأة فلسفية كبيرة، حيث حاول الغزالي في جو مليء بالمواقف المناهضة للمنطق ولكل ما له صلة بالفلسفة، إذ اعتبر المنطق مدخل للفلسفة والفلسفة شر وبالتالي فالمدخل إلى الشر شر،ولذلك قيل من تمنطق فقد تزندق[٢]، في هذا الجو حاول الغزالي إضفاء المشروعية على المنطق وتأصيله في الفكر الإسلامي، وذلك برد أشكال القياس المعروفة إلى القرآن الكريم.

وللغزالي باع كبير في الفلسفة، رغم أنه اشتهر أكثر كناقد لها، ويشهد على ذلك كتابه المعروف في شرح مذهب الفلاسفة وآرائهم والموسوم بـ "مقاصد الفلاسفة" والمؤلف سنة(١٠٩١م)، وقد لقي انتشارا وإقبالا كبيرا سواء لدى المسلمين أو لدى غيرهم، مثلما يؤكد ذلك "هنري كوربان" في قوله: "وهو(مقاصد الفلاسفة) كتاب له شأن عجيب في الغرب، فترجم إلى اللاتينية عام(١١٤٥م) في طليطلة، ترجمه "دومينكوس غانديساليتوس" بعنوان "منطق الغزالي العربي وفلسفته" ولكن دون أن تترجم الافتتاحية والخاتمة أين يحدد الغزالي هدف الكتاب وغرضه وهو عرض مذاهب الفلاسفة كما هي لينقضهم فيما بعد، فيكون هذا الكتاب قد عرف الغزالي إلى الفلاسفة اللاتين على أنه فيلسوف من صحب الفارابي وابن سينا"[٣]، ولعل هذا العمل من جملة النقائص التي يمكن أن تؤخذ على أعمال المستشرقين في تعاملهم مع التراث الإسلامي،

---

[١] - الغزالي ، القسطاس المستقيم ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٩، ص٧٣.

[٢] - توفيق الطويل: قصة النزاع بين الدين و الفلسفة، مرجع سابق، ص٦٦.

[٣] - هنري كوربان، مرجع سابق، ص٢٧٢.

والحقيقة أن الكتاب الذي يبدو فيه تأثر الغزالي بشكل جلي بآراء الفلاسفة هو كتاب "معارج القدس في معرفة النفس"، حيث استخدم الغزالي بعض مصطلحات الفلاسفة كالفيض، كما استخدم بعض أدلة ابن سينا على حدوث النفس[١]، والحديث عن مؤلفات الغزالي الفلسفية يقودنا حتما إلى الحديث عن كتاب "تهافت الفلاسفة" ليس من حيث نقده للفلاسفة، ولكن من حيث أسلوبه وطريقته في فهم آرائهم وشرحها وعرضها، وهذا ما أدى ببعض الباحثين إلى الإشادة بمقدرة الغزالي الفلسفية، ودفع بعضهم إلى القول بأن من لم يفهم كتب الفلاسفة فعليه بكتب الغزالي[٢]، غير أن نقاد الغزالي، وعلى رأسهم ابن رشد، قد أعابوا عليه عدم فهمه مذاهب الفلاسفة وآرائهم، وعدم اطلاعه على مصادرهم أو أنه حاول تزييف آرائهم[٣]، ويمكن الرد على ذلك بأن الغزالي قد عرف بأمانته العلمية والتزام الموضوعية، فهو يدعو صراحة إلى ضرورة فهم المذهب قبل نقده[٤]، وقد أعاب عليه بعض أنصاره خدمته لبعض المذاهب، كمذاهب الفلاسفة والباطنية، بدون قصد، وذلك في سعيه لشرح هذه المذاهب وعرضها، فكان بذلك نصيرا لها أكثر من أصحابها، وأما عدم اطلاعه على مصادر الفلاسفة، فإن هذا النقد لا يخص الغزالي فقط بل

---

[١] - عبد الرحيم الزيني، مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،١٩٩٧، ص٣٠١، الغزالي، معارج القدس، في مدارج معرفة النفس، شركة الشهاب الجزائر، ١٩٩٣،ص١١٣، محمود قاسم، في النفس والعقل لدى فلاسفة الإغريق والإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط٤، ١٩٦٩، ص٢٠١ .

[٢] - كارا دي فو، مرجع سابق، ص٩٦.

[٣] - ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص١٥٠، وأيضا: ابن رشد، تهافت التهافت، ج١، تح. سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ص١٣٤.

[٤] - الغزالي، المنقذ من الضلال، ص٤٢.

يشمل أيضا أنصار الفلسفة أنفسهم وعلى رأسهم الفارابي، وابن سينا، والكندي، وابن رشد، الذين تناولوا آراء الفلاسفة اليونان من خلال الشروح والترجمات لا من خلال مصادرهم.

ولا يمكننا أن نختتم الحديث عن مؤلفات الغزالي وموضوعاتها دون الحديث عن خاتمة هذه المؤلفات ألا وهو كتاب"المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال"[١]، وهو كتاب أشبه بالمذكرات الفلسفية الخاصة التي تترجم لحياة الفيلسوف وسيرته الذاتية، كمذكرات القديس أوغسطين(المسمى بالاعترافات)، وديكارت، وروسو[٢]، ويقارن هذا الكتاب بكتاب الوصايا لـ "الحارث بن أسد المحاسبي"، الذي عرض فيه طرفا من حيرته وشكه ويقينه الذي انتهى إليه، فاعتبر بذلك أول مؤلف من هذا النوع وقد قرأ الغزالي للمحاسبي وتأثر به مثلما اعترف بذلك بنفسه[٣]، والمنهج الذي يتبعه الغزالي في هذا الكتاب أقرب إلى المنهج الاستبطاني في علم النفس، وأهم ما في الكتاب هو أن يصنف طلاب المعرفة(الحقيقة) من المسلمين، إلى أربعة أصناف: الفلاسفة، والمتكلمين، والتعليمية، والمتصوفة[٤]، حيث ينقد كل صنف من هؤلاء نقدا فلسفيا بناءا، وهذا النقد هو الذي يضعه في مصاف الفلاسفة الكبار

---

١ ألفه بعد الخمسين من عمره ويحتمل أن يكون من آخر مؤلفاته .

٢- عبد الرحمان مرحبا، مرجع سابق، ص٦١٩.

٣ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص١٩.

٤- المرجع نفسه، ص٣١

الذين تمسكوا بالمنهج النقدي، وهو الذي جعله يحظى بلقب "كانط الفلسفة الإسلامية".

والقول بأسبقية الغزالي وريادته للفلسفة النقدية يؤكده بعض المفكرين[١]، ولعل "هنري كوربان" قد أشار إلى ذلك بشكل أو بآخر في وصفه لهذه الفلسفة، حيث قال: "إنها لفلسفة جد إيجابية، وكل فيلسوف لاسيما إذا كان إشراقيا لا يجد حرجا من الاعتراف بفضلها وقيمتها ومن المؤسف ألا يكون العكس صحيحا، فالموقف السلبي الذي وقفه الغزالي من الفلاسفة يبلغ حدا من الاحتدام يعجب له كل من عرف الغزالي ونفسه العالية، إنه بلا شك ذلك العذاب الداخلي الذي كان يعانيه، والذي يتخذ طابع الجدل الكلامي في مؤلفاته، وهذه المناقشات الكلامية لا تشتمل على أقل من أربع مؤلفات، يهاجم الغزالي فيها تباعا الإسماعيلية والنصارى والإباحية وأخيرا الفلاسفة، ويزيد في العجب أيضا تلك الثقة التي يوليها للمنطق والجدل العقلي في سبيل الوصول إلى غاية محاجته في حين أنه هو نفسه لا يؤمن بجدوى المنطق والعقل لبلوغ الحقيقة"[٢].

وفيما يلي سنتعرف على قائمة بهذه المؤلفات الأربعة، والفكرة الأساسية في كل منها، باعتبارها من أهم المصادر لمعرفة فلسفة الغزالي النقدية، وأول هذه المؤلفات: كتاب "فضائح الباطنية"، ألفه سنة(٤٨٨ هـ) ويعرف أيضا بكتاب "المستظهري" نسبة إلى الخليفة السلجوقي

---

١ – مراد بركات، الإنسان عند الغزالي، مرجع سابق، ص ١٦٠ .

٢ – هـ . كوربان، مرجع سابق، ص ٢٧٥ .

"المستظهر بالله"، الذي كان سببا من الأسباب الدافعة لتأليف الكتاب، فالفكرة التي أوحت للغزالي بتأليف هذا الكتاب الذي يناقش فيه الباطنية (التعليمية)، على اتصال وثيق بشؤون السلطة السياسية، نعني بذلك، انصراف الخليفة العباسي "المستظهر بالله" واهتمامه في إظهار شرعية تبوئه للخلافة ضد ادعاءات الفاطميين وزعمهم[١]، وإذا كان هذا الرأي لا يماري فيه أحدا، لأن الغزالي نفسه يعترف بذلك، وهو رأي حاول من خلاله البعض، انتقاد الغزالي واتهامه بالتواطؤ والعمالة لصالح الحكام السلاجقة[٢]، والغزالي نفسه يؤكد ذلك، إذ يقول: "فإني لم أزل مدة المقام بمدينة السلام متشوقا إلى أن أخدم المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية ضاعف الله جلالها ومد على طبقات الخلق ضلالها"[٣].

ولكن، ما يؤخذ على نقاد الغزالي هؤلاء، هو أنهم قد بالغوا في إبراز الخلفية السياسية والإيديولوجية للكتاب وأهملوا الجوانب والأبعاد الإبستمولوجية والفلسفية التي ينطوي عليها، وهي الأساس، ونقصد بذلك موقفه من التعليم والتقليد الباطني، ومن التأويل، وتقسيم النصوص إلى ظاهر وباطن[*]، وهذا الموقف بأبعاده المختلفة يؤكده في مؤلفاته الأخرى في نقد الباطنية (التعليمية)، وخاصة في كتاب "القسطاس المستقيم"، وذلك ما سنتناوله في الفصل الخاص بنقد الباطنية.

---

١ - المرجع نفسه، ص ٢٧٥ .

٢ - مثلا ، جعفر آل يس، فلاسفة مسلمون، مرجع سابق، ص ٦٩ .

٣ - الغزالي، فضائح الباطنية، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٤٢

* - سيأتي الحديث عن ذلك في الفصول القادمة من هذا البحث

أما الكتاب الثاني فموجه لنقد النصارى، وعنوانه "الرد الجميل لألوهية المسيح"، ويؤكد "هنري كوربان" أن الغزالي قد استند في نقده للنصارى على ماء في الإنجيل من نصوص واضحة وبينة، وهذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه، وهو أن الغزالي يسعى جاهدا إلى معرفة المذهب وعرضه في أكمل صورة ثم نقذه، وذلك ما يمكن اعتباره قاعدة أساسية في النقد تقوم على الموضوعية والأمانة العلمية، وفي تعليقه على مادة الكتاب، يقول كوربان: "ومن العجيب ألا يعلق الغزالي في كتابه هذا كبير الأهمية على وجوب التوحيد، وخطر تشبيه الله بصفات الخلق، في حين أنه يعمل على إثبات طريقته الخاصة التي تقوم [...] على عدم القبول بغير العلم والعقل هاديين ومرشدين في تأويل النصوص الإنجيلية. وهذا بلا شك احتجاج إنجيلي على مبادئ الكنيسة"[1]. إن ما يهمنا من هذا التعليق، ليس نقد الغزالي للكنيسة، ولا كونه سابقا لدعاة الإصلاح الديني من النصارى الذين احتجوا على مبادئ الكنيسة الكاثوليكية، وإنما يهمنا ما تضمنه من إشارة إلى الأبعاد الإبستمولوجية في منهج الغزالي النقدي، والمتمثلة في اعتماده على العقل والعلم في تأويل النصوص الإنجيلية، وهذا يجعل الغزالي مفكرا عقلانيا يقيم وزنا للمنطق وللعلم في المعرفة، خلافا لطريقة رجال الكنيسة وبعض رجال الدين المسلمين الذين تقوم طريقتهم على شرح النصوص بمثيلاتها دون أن يقيموا وزنا للعقل والمنطق.

---

[1] - هـ. كوربان، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

أما الكتاب الثالث من كتب الغزالي النقدية الأربعة التي يذكرها "كوربان"، فهو كتاب "نقد الإباحية"، وهو كتاب جدلي ألفه بالفارسية ولا نعلم إن كانت له ترجمة عربية أم لا، وعموما فهو كتاب نادر الوجود، وعنوانه يدل على أنه موجه لنقد الإباحية وهم "طبقة واسعة تضم الصوفيين والفلاسفة المتنقلين، ومختلف أنواع الهراطقة ومللهم"[١]، وكل طائفة من هؤلاء تعد خصما للغزالي، باعتباره مفكرا دينيا يقيم وزنا للشرع وللعقل، ومفكرا أخلاقيا يقيم وزنا للقيم.

وأما آخر الكتب في هذه السلسلة من مؤلفات الغزالي النقدية، فهو كتاب "تهافت الفلاسفة"، الذي سبقت الإشارة إليه في موضع آخر، ومن المرجح أن الغزالي قد ألفه سنة (٤٨٨هـ)، وذلك لغرض نقد الفلاسفة مثلما وعد بذلك عندما ألف كتاب "مقاصد الفلاسفة"، وعنوان الكتاب ينم بوضوح عن مقصد الغزالي من تأليفه، ذلك أن كلمة "تهافت" تدل ،في معناها العام، على النقد والهدم وأما معناها الدقيق، فلم يحدده المفكرون تحديدا دقيقا بل راحوا يفسرونها ويشرحونها ويترجمونها بمعان مختلفة ففسرت بمعنى التناقض، والهدم، والتساقط، والتفكيك، وعدم التلاحم، والتسرع، والحماقة، والانهيار، والدمار...الخ[٢]، والمتمعن في هذه الكلمات (المترادفات) يجدها في النهاية تقترب من حيث المعنى وإن اختلفت في اللفظ، إذ تؤول كلها في النهاية إلى النقد، وتبعا لهذا

---

١ ـ المرجع نفسه، ص ٢٧٧.

٢ ـ أبو ريدة، على هامش دي بور، مرجع سابق، ص٣٠٧. و كذلك: كوربان، مرجع سابق، ص ص(٢٧٧ – ٢٧٨). وأيضا: عمر فروخ، مرجع سابق، ص٢٨٧ .

الاختلاف والتضارب في شرح كلمة "تهافت"، فإن المفكرين قد اختلفوا في تحديد الأبعاد الحقيقية للكتاب، فمنهم من يرى بأن الغزالي "أراد به تسويد صفحتهم في نظر العامة، وتهديم الفلسفة نفسها وأن كلمة تهافت تعني تناقض الفلاسفة في أدلتهم وقصورهم عن إقامة الأدلة المقنعة على صحة ما يزعمونه من الآراء"[١]، ويرى البعض الآخر من المفكرين، أن مقصد الغزالي من هجومه على الفلاسفة، ليس هدم الآراء في نفسها، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين، وإنما كان هدفه هدم المنهج العقلي الذي استندت إليه هذه الآراء، "فقول الفلاسفة بخلود النفس، مثلا، هو رأي يقول به الغزالي أيضا، ومع ذلك، فإنه حمل معولا وأخذ يهدم بيد قوية المسلك العقلي الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس، فانهارت أدلتهم وتهافتت [...] لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود"[٢]، فهذا الرأي يحصر أبعاد الكتاب في نقد العقل في مسائل الطبيعة وما بعد الطبيعة، وقد أشار الغزالي إلى هذا البعد صراحة في كتابه هذا، ولهذا نجد أغلب المفكرين يؤكدون على هذا البعد، ومن هؤلاء "عبد الرحمان مرحبا"، حيث يقول: "وأهم ما كان يرمي إليه الغزالي من مهاجمته للفلاسفة ونقده اللاذع لاستنتاجاتهم في كتابه "التهافت"، إنما هو إظهار العقل بمظهر العاجز عن الخوض في الحقائق الدينية والإلهية [...] فالغزالي لم يتهم العقل إلا في مسائل ما بعد الطبيعة فقط، وهي المسائل التي تعثر فيها الفلاسفة وتفرقوا فيها [...] وما ذلك إلا لأن مسلكهم فيها لم يكن برهانيا يؤدي

---

[١] – عمر فروخ، مرجع سابق، ص ٢٨٧ .

[٢] – جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٣، ص٢٤

إلى العلم اليقيني الذي حدده الغزالي [...] فالغزالي إذن ينكر قدرة العقل على الوصول إلى المعرفة اليقينية في عالم ما بعد الطبيعة"[١]، وكذلك في بعض المسائل الطبيعية، خلافا لما يراه مرحبا، وإذا كان هؤلاء الباحثون قد توصلوا إلى تحديد أبعاد الكتاب أو بعضها، والمتمثلة في نقد العقل في مسائل الطبيعة وما بعد الطبيعة، فإن ما يؤخذ على هؤلاء هو قلة اهتمامهم بهذه الأبعاد وعدم إعطائها الأهمية التي تستحقها وذلك رغم أن هذه المشكلة تعد أهم مشكلة في نظرية المعرفة سواء في الفكر الفلسفي القديم أم الحديث، بل إن هذه المشكلة هي التي جعلت من "كانط" صاحب "ثورة في الفلسفة" ورائدا للفلسفة النقدية، فأهمل بذلك فضل الغزالي في هذا السبق الفلسفي، ولم يلق الاهتمام اللازم إلا مؤخرا من قبل بعض الباحثين في تاريخ الفكر الفلسفي، وأما البعض الآخر من الباحثين والمفكرين فقد أخطأوا تماما، عن قصد أو عن غير قصد، في تقدير الأبعاد الحقيقية للكتاب ومن ثم في تقدير موقف الغزالي من العقل ومن الفلاسفة، فاتهموه خطأ بمعاداة العقل وبمعاداة الفلسفة، فتجاهلوا بذلك موقف الغزالي الإيجابي من العقل، وتجاهلوا أن نقده للفلاسفة إنما يعبر عن فلسفة جد إيجابية وبناءة أكثر مما هو هدم للفلسفة، وقد أشاد بعض الباحثين المنصفين بأهمية هذه الفلسفة النقدية وقيمتها، يقول هنري كوربان: "إنها لفلسفة جد إيجابية، وكل فيلسوف، لاسيما إذا كان إشراقيا لا يجد حرجا من الاعتراف بفضلها وقيمتها ومن المؤسف أن لا يكون العكس صحيحا، فالموقف السلبي، الذي وقفه الغزالي من الفلاسفة يبلغ

[١] – عبد الرحمان مرحبا، مرجع سابق، ص ٦٤٥ .

حدا من الاحتدام يعجب له كل من عرف الغزالي ونفسه العالية، إنه بلا شك ذلك العذاب الداخلي الذي كان يعانيه والذي يتخذ طابع الجدل الكلامي في مؤلفاته [...] ويزيد في العجب أيضا تلك الثقة التي يوليها الغزالي للمنطق والجدل العقلي في سبيل الوصول إلى غاية محاجته في حين أنه هو نفسه لا يؤمن بجدوى المنطق والعقل لبلوغ الحقيقة"[١].

إن هذا الاعتراف ـ من مفكر أجنبي ـ بقيمة فلسفة الغزالي النقدية، على ما فيه من إيجابيات إلا أنه يتضمن بعض المغالطات أو بالأحرى بعض القصور في الإحاطة بجوانب هذه الفلسفة ـ وهذا شيء ألفناه لدى المستشرقين ـ من ذلك اتهامه للغزالي بعدم إيمانه بجدوى المنطق والعقل لبلوغ الحقيقة، والصحيح أن الغزالي يجعل للعقل حدودا لا يمكن أن يتخطاها وإلا وقع في الخطأ، لأن ثمة مجال الإلهام الصوفي والوحي الذي يختص به أولياء الله (المتصوفة) والأنبياء ولا مجال للعقل فيه[*]، فإذا تحرك العقل في مجاله، استطاع تحصيل المعرفة الصحيحة، ولعل هذا ما أشار إليه "عبد الرحمن مرحبا" في قوله: "إن هجوم الغزالي على الفلاسفة القدماء [...] لا يدل فقط على الجانب السلبي في تفكيره، وهو جانب الهدم والتحطيم، بل يدل أيضا على الجانب الإيجابي فيه، جانب البناء أو الخلق، فهو لم يهدم ما هدم ولم يحطم ما حطم إلا ليقيم للدين صرحا وليجعل للحق معيارا هذا المعيار هو النور الإلهي والتأييد

---

١ ـ كوربان ، مرجع سابق، ص٩٢ .

* ـ سنفصل الحديث عن مراتب المعرفة وأنواعها في فصل لاحق.

السماوي"[١]، وسنرى لا حقا أن هذا ينطبق أيضا على فلسفة كانط مع بعض الاختلافات التي سنشير إليها في حينها، كما سنرى أن بعض الفلاسفة قد حدوا حذو الغزالي، بتأثير منه أو بدون تأثير، في تحديد العقل، ونقد الفلسفة[٢]، وأن هذا المسلك هو الذي أعطاهم مكانتهم وشهرتهم في تاريخ الفكر الفلسفي، في الوقت الذي كان فيه هذا المسلك وراء الانتقادات التي وجهت للغزالي وحاولت التقليل من شأنه ووصفه بما ليس فيه، لولا قيام بعض الباحثين والمفكرين برد الاعتبار لفلسفته النقدية والدفاع عنها من خلال التحليل الإيجابي والموضوعي لكتاب "التهافت"، ومن هؤلاء "كارا دوفو" الذي أشاد بالخصوص بنهج الكتاب حيث يقول: "وتهافت الفلاسفة هو الكتاب الذي جمع فيه إمامنا انتقاداته ورتبها وأوضحها، وطريقة هذا الكتاب ممتازة جدا، فلم يهاجم فيه المذهب المحارب جملة وعموما، ولم يدلله الغزالي لاعتراضات مبهمة تعسفية جائرة متناقضة لا ارتباط بينها، ولم يجادل الغزالي فيها على طريقة المحامي، وذلك كما يصنع في أيامنا التي هبط فيها فن النقاش وانحط [...] ولا يعين الغزالي في المذهب المتهم نقاط ولا مسائل يلوح له رأي الخصم فيها موجبا للتجريم، وإنما يكافح هذه الآراء الخاصة بالتتابع مستعينا بجدل قوي حاد، وأول ما يفعل هو أنه يورد الرأي الذي يكافح، وهو يورده مزينا إياه بجميع أدلته معيرا إياه، أحيانا، طلاوة بلاغته الخاصة[...] ومن الممكن كما هو الواقع، أن يعين بالضبط ذاك الرأي

---

[١] . عبد الرحمن مرحبا ، ص ٦٥٠ .

[٢] . منهم مثلا : ابن خلدون في مقدمته، ص ٣١٢. وابن تيمية، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، ح١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص ١٢٥ وما بعدها

الذميم فيمنحه، أحيانا، صلابة أو صفاوة جافية، لم تكن في عرض الخصم له عرضا أكثر تقنعا وتخفيا وتوسعا ومرونة وعمقا[١].

وإذا كان "كارا دو فو" قد أشاد، من خلال هذا النص، بمنهج الغزالي وطريقته في هذا الكتاب، وهو منهج سبق للغزالي وأن وضح معالمه ومميزاته في بعض مؤلفاته، فإن ما لفت انتباهه أكثر وزاد من إعجابه ـ العلمي ـ به هو ما تميز به من أسلوب جدلي متميز عن جدل المتكلمين فضلا عن الفلاسفة، فكان رائدا في هذا المجال، وفي هذا الصدد يقول "كارا دو فو": "وينم كتاب "التهافت" على ذروة فن النقاش السكلاسي، وهو الأثر الرائع الأول في هذا المضمار، ولا ريب في أن ابن سينا والفارابي الذين لم يعنيا بالجدل إلا قليلا، لم ينتجا مثل ذلك. وما كان لأثر من هذا الطرز أن يوضع في زمن الأشعري [...] وتعد البرهنة "السكلاسية" مدينة للغزالي بكمال قوتها وتمام صورتها، وتعتبر قسما من أثره، وإنما يحسب من الغريب ألا يكون الغزالي قد أتقن آلة الفصل هذه إلا ليستعملها في تقويض نظام كان في عصره وبيئته أروع ما أسفر عنه العقل من عمل، ولخفض العقل وإذلاله وتضييق نطاقه ونقض اعتباره"[٢]، فمن خلال هذا النص، يتضح لنا أن "كارا دو فو" يعتبر الغزالي رائدا في مجال البرهان والجدل الكلامي، وهو ما اصطلحنا عليه بـ "المنهج النقدي"، وهذا أمر يحسبه لصالح الغزالي، وأما ما يحسبه عليه، فهو أنه قد استعمل هذا المنهج في هدم وتقويض أروع نظام في عصره ويقصد بذلك

---

١ - كارا دو فو، مرجع سابق، ص ص (٦١ -٦٢).

٢ - المرجع نفسه، ص ٦٢ .

نظام الفلسفة، وبالتالي التقليل من شأن العقل وقيمته باعتباره منهجا للفلسفة، ولا شك أن ملاحظات "كارا دو فو" هذه ـ على الرغم مما تتضمنه في ظاهرها من إعجاب بمنهج الغزالي ـ إلا أنها تنطوي على بعض الأخطاء والمغالطات التي وقع فيها عن قصد أو عن غير قصد، ويمكن الرد عليها بما يلي: أولا، إن نقد الفلسفة لا يعني في كل الأحوال التنكر للعقل، "فمن الظلم البين للغزالي أن يتهم بأنه إذ نقض الفلسفة فقد نقض العقل وتنكر له، ولم يخرج عن دائرة التقليد"[١]، بل الصحيح، في نظرنا، أن الغزالي بكتاب التهافت يكون قد "أعلى صوت العقل الناقد المستقل على العقل المتأثر المقلد، المسلم لآراء الكبار دون امتحانها"[٢]، فهو يؤكد في أكثر من موضع من مؤلفاته على ضرورة الاستقلال الفكري وترك التقليد، من ذلك مثلا قوله: "فجانب الالتفات إلى المذاهب، واطلب الحق بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكن في صورة أعمى، تقلد قائدا يرشدك إلى الطريق، وحولك ألف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل، وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص إلا في الاستقلال [...] ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث، لتندب للطلب، فناهيك به نفعا، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال"[٣]، فالغزالي بهذا يكون قد نبه إلى أول شرط من شروط التفلسف ألا وهو الاستقلال

---

[١] ـ يوسف القرضاوي ، مرجع سابق، ص٣٨ وما بعدها

[٢] - المرجع نفسه، ص ٤٠٩

[٣] ـ الغزالي، ميزان العمل، ص ٨٧

والابتعاد عن التقليد، وثاني شرط، هو الشك باعتباره أول خطوة نحو المعرفة، وكأنه بذلك يوجه كلامه للفلاسفة المسلمين الذين قلدوا الفلاسفة اليونان، ولم يجرؤوا على نقدهم متأثرين بما سمعوه عنهم من شهرة وحكمة[١]، وهذا الموقف لا يرضي الغزالي، وهو القائل:"لا تعرف الحق بالرجال، بل أعرف الحق تعرف أهله"[٢].

إن الغزالي بهدمه الفلسفة قد غدا فيلسوفا، ولكن بمعيار آخر، ومن منطق آخر، إنه لم يعد تابعا ومقلدا، بل فيلسوفا أصيلا ومستقلا، إنه فيلسوف وإن لم يرد أن يكون فيلسوفا[٣]، وهذا ما يعترف به كبار المفكرين، وعلى رأسهم "أرنست رينان"، الذي يقول:"لم تنتج الفلسفة العربية فكرا مبتكرا كالغزالي"[٤]، وهذا يعني، أن الفلسفة العربية المشائية ليست أروع نظام أنتجه الفكر العربي كما قال "كارا دو فو"، طالما أن هذه الفلسفة تفتقر إلى مقومات التفكير الفلسفي الأصيل التي حددها الغزالي، كالاستقلال والشك، فهي تقوم على التقليد أكثر منها على النظر الحر.

ودفاع الغزالي عن المنطق يعد دليلا آخرا على أنه يعترف بقيمة العقل، ولم يعمل أبدا على خفضه وإذلاله ونقض اعتباره، كما ادعى "كارا دو فو".

---

[١] ـ الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص ٨٧ .

[٢] ـ الغزالي، ميزان العمل، ص٢١٨، وأيضا: المنقذ من الضلال، ص٢٤، وكذلك: مرحبا، مرجع سابق، ص٣١٦ .

[٣] ـ يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ٥٣ .

[٤] ـ المرجع نفسه، ص٥٣ .

ومن جهة أخرى، فإن الفلسفة الإسلامية لا تقتصر فقط على الفلسفة المشائية، بل تشمل أيضا علم أصول الفقه والتصوّف وعلم الكلام، وقد ألف الغزالي في كل علم من هذه العلوم، بل يمكن عده مرجعا أساسيا في كل منها، فكيف يحق اتهامه بأنه عدو للفلسفة وعدو للعقل إذا نقد الفلسفة المشائية؟، ثم إن الغزالي، على خلاف بعض رجال الدين، "قد ناقش الفلسفة بالفلسفة، وحطم السلاح بسلاح مثله، بيد أن نقده أنفذ وأمضى، فهو على هذا فيلسوف أقدر من الفلاسفة الذين أبطل حجتهم"[١]، ولعل هذا ما جعل تلميذه "أبا بكر بن العربي" يقول: "شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، ثم أراد أن يتقيأهم، فما استطاع"[٢]، ثم إنه، ليس الغزالي أول ولا آخر من نقد الفلاسفة، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، بل إننا نجد الذين حاولوا الدفاع عن الفلسفة كابن رشد قد قاموا بدورهم بنقد الفلاسفة السابقين، فهل يمكن اتهام هؤلاء بمعاداة الفلسفة وإذلال العقل؟!.

ونحسب أن الموقف الذي وضع فيه الغزالي الفلسفة والفلاسفة بعد الانتقادات التي وجهها لهم، وهو الموقف الذي جعلها في موقع الدفاع بدل الهجوم، وموقف الشبهة بدل موقع القداسة والتفوق، حتى قال البعض أن الفلسفة لم تقم لها قائمة بعد ذلك، هذه النتائج هي التي

---

[١] . عبده الشمالي، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ورجالها، ص ٥٥٣ نقلا عن القرضاوي، مرجع سابق، ص٥٣ .

[٢]- عبد الكريم عثمان ، سيرة الغزالي ، نقلا عن: القرضاوي، مرجع سابق، ص٥٤ .

جعلت الغزالي يتهم بمثل هذه الاتهامات، وجعلت حملته على الفلسفة تتميز عن حملة الآخرين، من فقهاء ومتكلمين .

هذا فيما يخص الرد على الملاحظة الأولى التي ذهب إليها "كارا دو فو"، وهي ملاحظة يشاطره فيها الكثير من المفكرين مسلمين وغير مسلمين، أما فيما يخص الملاحظة الثانية التي يقول فيها بأن الغزالي يعد رائدا للمنهج الجدلي النقدي، وهذه أيضا ملاحظة يشاطره فيها بعض الباحثين والدارسين، فهي ملاحظة أيضا قابلة للمناقشة والرد، وحسبنا في ذلك ما كتبه "كارا دو فو" نفسه ـ الذي يتناقض مع ذاته دون قصد منه ـ إذ يقول: "وترجع عادة متكلمي السنية في مناهضة الفلاسفة إلى أوائل المدرسة الفلسفية وقد رئي هذا الكفاح أمرا ضروريا لدى علماء الكلام كما رئيت ضرورة مكافحة المعتزلة [...] ففي هذه الحمى الدراسية التي اشتدت في العالم الإسلامي مدة تزيد على قرنين نما ذوق الجدل، [وكان العلماء يؤلفون] كتبا معدة للجدل على الخصوص، وكانوا يطلقون على هذه الكتب اسم "الرد على العموم، وإذا ما تصفحنا مؤلفات العلماء والفلاسفة اطلعنا على مقدار من ردود فلان على فلان في المسألة الفلانية، وكان الطبيب الكبير الرازي، قد رد على الكندي لإدخاله السيمياء إلى الفنون المحظورة، وحديثا ذكرنا أن الأشعري والباقلاني ردا على فلاسفة عصرهما وعلى كثير من الفرق الملحدة، وعلينا أن نضيف إلى هؤلاء الجدليين اسم الحارث المحاسبي[...] لأن الغزالي نفسه قال أنه

اقتبس من آثاره وأقام وزنا كبيرا له كجدلي وصوفي"[١]، فالغزالي، حسب ما جاء في هذا النص، يمثل امتدادا للتيار الكلامي، وخاصة الأشعري منه. وعلى هذا، فمن المبالغ فيه القول بأنه السباق إلى ابتكار المنهج الجدلي(النقدي)، والصحيح، في نظرنا، أنه قد جدد هذا المنهج وطوره فنضج على يديه، خاصة وأنه أطلع على تراث أسلافه في هذا المجال وسمح له ذلك بالوقوف على ما فيه من نقائص، وقد لخصها الغزالي في قوله: "إن الذين اشتغلوا بالرد على الفلاسفة من المتكلمين لم يصرفوا عنايتهم للوقوف على منتهى علومهم، ولم يكن ما جاء في كتب المتكلمين إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض، لا يظن الاغترار بها بغافل عامي فضلا عمن يدعي دقائق العلوم"[٢]، فالغزالي يبين لنا، من خلال هذا النص، مواطن القصور في طريقة المتكلمين السابقين، وهي أن هؤلاء قد اتجهوا إلى نقد الفلاسفة دون الإحاطة بعلومهم وفهمها فهما دقيقا، وأن انتقاداتهم قد جاءت معقدة ومتناقضة فضلا عن كونها عامة لا تفي بغرض العامي فضلا عن المتخصص، ولهذا نجد الغزالي يضع بعض الشروط التي ينبغي، في نظره، الالتزام بها بالنسبة للناقد البناء، مثل شرط الاستيعاب، والاستقلال، فالاجتهاد والإبداع، وهذا ما عبر عنه في قوله: "إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته،

---

[١] . كارادوفو، مرجع سابق، ص ص (٥٧. ٥٨).

[٢] . الغزالي ، المنقذ من الضلال، ص١٦

فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقا"[١].

فالغزالي إذن، يشترط في ناقد العلوم والمذاهب، لكي تكون انتقاداته سليمة وبناءة، استيعاب العلم الذي يريد نقده، والإحاطة بجزئياته حتى يكون في نفس درجة أصحابه، ولا ينبغي له الاكتفاء بذلك، بل هو مطالب بزيادة التحصيل حتى يجاوز علمه أصحاب هذا العلم ويطلع على ما لم يطلع عليه هؤلاء، فإذا فعل ذلك تكون انتقاداته مؤسسة على أسس علمية لا عن عاطفة وهوى، والغزالي يلح على هذه الشروط ويؤكد عليها في أكثر من موضع، من ذلك مثلا قوله ـ في مقاصد الفلسفة ـ :"فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال، بل هو رمي في العماية والضلال"[٢].

إن تكرار الغزالي لهذه العبارة، يجعل منها بمثابة قاعدة أساسية في النقد[٣]، وقد التزم الغزالي بهذه القاعدة في ممارسة التفكير النقدي، حيث نجده قد كرس جزءا كبيرا من اهتماماته لدراسة المذاهب التي يريد نقدها من فلسفة وعلم الكلام لتصوف وفقه وباطنية، وقد ألف العديد من المؤلفات الإيجابية على طريقة أصحابها، قبل أن يرد عليهم، كتأليف

---

[١] . المصدر نفسه، ص١٨

[٢]. الغزالي، مقاصد الفلاسفة، تح. سليمان دنيا دار المعارف ، مصر ط ٢، ١٩٦٠، ص٣١

[٣] – سليمان دنيا، مقدمة ميزان العمل، ص ٤٣، وأيضا: سليمان دنيا، الحقيقة في نظر الغزالي، مرجع سابق، ص ٦٤.

كتاب "مقاصد الفلاسفة" ليمهد للرد على الفلاسفة في كتاب "تهافت الفلاسفة" بعد ذلك(*).

ولعل التزام الغزالي بهذه القاعدة، وما كان لذلك من نتائج وآثار إيجابية على منهجه النقدي، هي التي أدت بالكثير من المفكرين والدارسين إلى اعتباره رائدا للتفكير النقدي في الإسلام، حيث نقرأ في إحدى الدراسات عن الغزالي قول صاحبها:" فهو لم يسبق في العالم الإسلامي في جعل "النقد" أساس المعرفة والاعتقاد، وفي البحث الدؤوب من أجل الوصول إلى المعرفة، التي جعلها قضية وجودية تتصل بمصير الإنسان ووجوده في الكون وليست وظيفة ترفيهية لا يقوم بها سوى المترفين والعاطلين"(١).

وعلى الرغم من مبالغة هذا الرأي فيما ذهب إليه، إلا أن الغزالي يستحق من دون شك الإشادة والإعجاب، نظرا لما أحدثه من ثورة في الفكر الإسلامي، وهي الثورة التي يشبهها "محمد إقبال" بثورة "كانط" الفلسفية.

---

*. وفي هذا الصدد يقول الدكتور يوسف القرضاوي: "ويحقق ما قاله الأستاذ العقاد رحمه الله عن (فلسفة الغزالي) في محاضرته بالأزهر، لو سئل الغزالي : هل أنت فيلسوف؟ لأنكر انتسابه للقوم الذين يبطل حجتهم ، ويدحض آراءهم، ويقضي على آرائهم بالتهافت، وهو الضعف الذي لا يقوى المتصف به على التماسك والثبوت . لكننا ننظر إلى أقوال الغزالي في مناقشته للفلاسفة، فنعلم أنه ناقش الفلسفة بالفلسفة وحطم السلاح بسلاح مثله ، بيد أنه أنفى وأمضى ، فهو على هذا فيلسوف أقدر من الفلاسفة الذين أبطل حجتهم، الإمام الغزالي ، بين مادحيه وقادحيه، مرجع سابق، ص ٥٥ وما بعدها.

١. بركات محمد مراد، مرجع سابق، ص٧.